غالب هلسا

زنوج و بدو و فلاحون

مجموعة قصصية

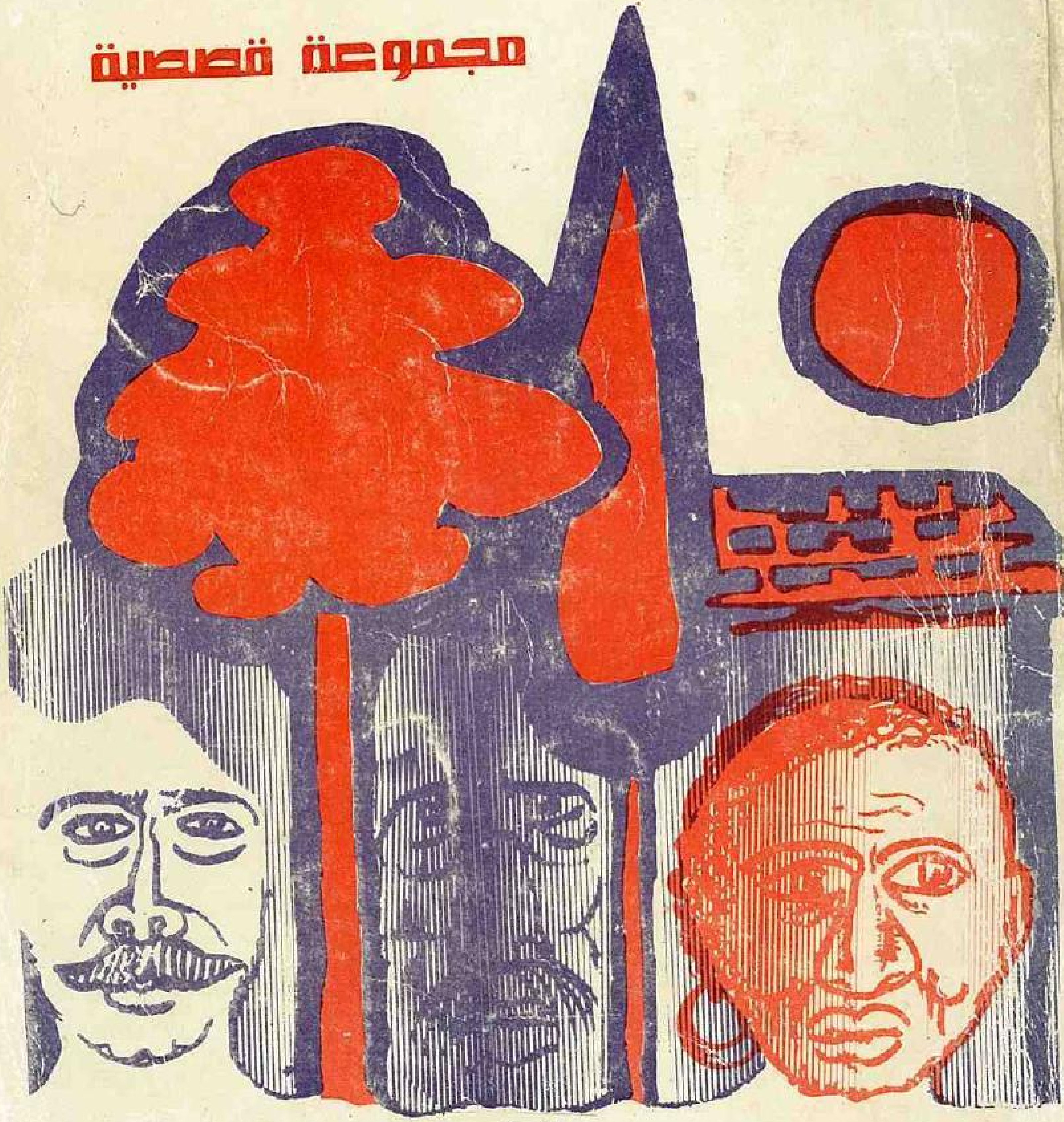

دار المصير
للطباعة والنشر

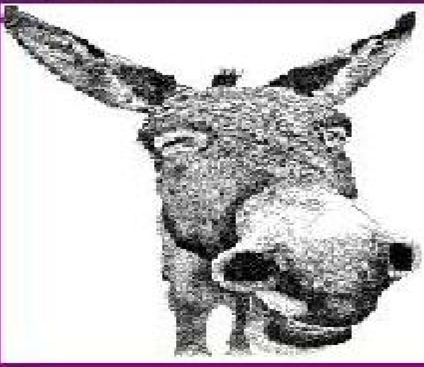

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

غالب هلسا

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

زنوج وبدو وفلاحون

دار المصير
للطباعة والنشر

حقوق الطبع محفوظة

الفصل الاول

جون باجوت جلوب

جاء الضابط البريطاني عند منتصف الليل . لم يتجه الى الخيام ولكنه نام مع الرعيان . في الصباح زار الشيخ . وجلس في الجزء المخصص للرجال من الخيمة ، في صدر المكان ، متكئا بكوعه على المسند المغطى بالسجاد . والشيخ يجلس بجواره ضئيلا وقذرا .

كان للضابط البريطاني وجه طفل : احمر ومستدير وخال من التجاعيد كأنه خزف مشوي . عيناه ذات زرقة باهتة . في جانب الوجه جرح غائر يجعل فمه يبدو معووجا ، ولذا اطلق عليه البدو لقب (أبو حنيك) . كان يرتدي لباس جيش البادية الاردني : كوفية حمراء ، وعقالا رفيعا علقت فيه — فوق الجبين — شارة الجيش العربي ، وقمبازا من الخاكي .

تناول زنجي ذو وجه عريض لامع دلة القهوة وقدم فنجان القهوة للضابط البريطاني . تذوقها ، ضاقت عيناه وتفحص الفنجان وقال :

« الزمها النار يا ولد ، قهوتك باردة » .

كان يتصرف بوحي اعتقاد ساذج انه انما يكسب ولاء هؤلاء البدو بادعاء التمسك بعاداتهم وبالحرص المبالغ في التقيد بها ، يخدعه الاستحسان الذي يثيره أمثال ملاحظته عن القهوة . وأمامه كان يتظاهر البدو بالتعلق الشديد بتلك العادات .

أعاد الزنجي الدلة الى النار . تناول ملقطا وأخذ ينقل الجمرات ويضع فوقها قطع صغيرة من الحطب حتى اختفت النار تماما . أمسك بطرف جلبابه وأخذ يهوى على النار، تصاعد الدخان بسرعة ثم ارتفع اللهيب .

التفت الشيخ بسرعة نحو الضابط وكلمه بصوت نحيل محشرج:

— طولت غيبتك يا صاحب .

رد الضابط : أشغال يا شيخ ، أشغال .

كان يتكلم بلهجة تخالطها لكنة غريبة . ارتسمت على وجوه الجالسين ابتسامات اخفوها بتقطيب الحاجبين . قال الشيخ :

— شفت الشريف عبد الله ؟

أخذ الضابط البريطاني يتكلم بسرعة ، معتقدا انه بذلك يخفي لكنته المضحكة :

— والله سيدنا مشغول . شفته مدة قصيرة .

— وش قال عن العيال اللي يريدون يخشوا الجيش ؟

— قال سيدنا تتبدون على غيركم في دخول الجيش والرتبة . سيدنا ما ينسى وقفتكم معه .

سرت همسات بين الرجال . وكان وجه الشيخ صارما يحدق بقسوة واشمئزاز في محدثه .

همس رجل الى اخر يجلس الى جواره :

— سياسي ملعون الوالدين .

نظر اليهما الضابط طويلا . امتقـع وجه الذي تكلم وأطرق . أخذ يرسم باصبعه خطوطا متوازية على الارض المتربة .

في المحرم كانت زوجة الشيخ الثالثة تصغي لحديث الرجال . كانت ابنتها تسمع الاصـوات ولكنها لم تحاول أن تفهـم ما يقال . يصلها صوت أبيها متقطعا ، مختنقـا ، نحيلا كأنه صـوت طفل ، وكانت تفكر في تلك الساعة من الليل عندما يجيء (علي) ويدعوها اليه . أصبحت تلك الفترة هي مركز حياتها .

قالت لها الام :

— الشيخ يكلم الصاحب عن الفلاح اللي ذبح سحلول .

رأت ابنتها غير مصغية فادركت ما يشغلها . قالت هامسة :

— بنتي خليكي حرة .. البنت مالها غير شرفها .

أطرقت الابنة بضيق . أضـافت الام وهي تبسط كفيها كأنما سوف تتلقى عليهما حملا :

— الله يوفقك ، ربنا يوفقك ، يا رب ، انـت شايف ، زغيـرة ومالها ذنب .

أقبل الورادون فعلت ضجة في المحرم . عينا الابنة ساهمتان غائبتان ، احتدت عيناها وقالت :

— يمه ، الصاحب من أمة محمد ؟

لم يكن سؤالها منتظرا فاضطربت الام وأخذت تنظر الى ابنتها ثم قالـــت :

شهد واستهدي قبل سنتين . قال له واحد، إظن بالله سحلول، « ما نمشي ورا النصراني » قال أبوك : « الصاحب ما هو نصراني ، شهد يا صاحب وبري ذمتك » وشهد الصاحب .

من وراء الستار الفاصل بين خيمة الرجال والمحرم امتدت قدم وطرف عباءة لها لون الرمل . القدم كانــت نحيلة الكاحــل بارزة العروق ، استدارت عينا سلمى ، الابنة ، وصعد الدم الى وجنتيها . بدا « علي » . كان يرتدي ثوبا أبيض طويلا وعباءة خفيفة . وكوفية بيضاء ناصعة ، وعقالا ينزلق حتى يكاد يلامس الحاجبين . وجهه طويل ، مشوب بصفرة ، هادىء كأنه نائم .

قالت الام : وش علومك ياعلي ؟

اختلس نظرة سريعة الى وجه سلمى ثم قال : عمي أمر بغدا الصاحب .

قالت وضحا ، زوجة الشيــخ الاولى ، أم القبيلـــة ، وأكثر نسائها مدعاة للتقدير والحب :

ــ العوافي ياعلي ، الصاحب يريد يبات الليلة ؟

صوتها الواضح الهادىء ووجهها الجميل الكبير أسكت الاسئلة الكثيرة وزعزع تماسك علي . قال : مدري يا عمة . ما قال .

الفصل الثاني

الورادون

الخيام المستطيلة المتجاورة تمتد من الشمال الى الجنوب بخط شبه مستقيم ، خيام سوداء مصنوعة من شعر الماعز يسكنها أفراد القبيلة ، واخرى صغيرة الحجم للزنوج والفلاحين وصناع الادوات المنزلية والاسلحة ، وهذه مصنوعة من الخيش أو شعر الجمال .

أمام خيام رجـال القبيلة تقف خيـول عربية أصيلة دقيقـة الاطراف ، ضامرة البطن ، متوترة ، قلقة .

في الصباح تعلو ضجة المحرم وحركة الدخول والخروج تتزايد . تضع النساء ثلاثة أحجار كبيرة وتوقد بينها النار ويعدون عليهـا الطعام . العيون دامعة من الدخان ، والرؤيـة عسيرة والاصوات النسائية تعلو كأنها تستغيث والاطفال يسرعون بين أقدامهن فتتعثر فيهم النساء ويضربنهم ان كانوا في متناول اليد .

ومع الضحى يقبل الورادون يسوقون حميرا محملة بقرب الماء: زنوج وفتيان وصبايا في المؤخرة يستمتعون بآخر لحظة من اللقـاء والغزل . ومن رحلة ورود الماء تنشأ الزيجات المقبلة .

وعند وصول الورادين تعلو ضجة أمام الخيام ، وتكتسب الوجوه تعبيرا فيه جدية وتعاسة . يسود التوتر وتدع النساء ما كن يزاولنه من اعمال . التوتر يسري الى الشيخ . تزداد عيناه الحمراوان نفاذا وتبرز عقدة بين حاجبيه . يمسك بخيزرانته ويطرق الارض ، برأسها المدور الاسمر طرقات سريعة متتالية .

أمام كل خيمة يقف حمارا أو اثنان ، وأمام بيت الشيخ وقفت ثمانية حمير وزنجيان وثلاث نساء . كانوا متربين ، دامعي الاعين ، تفوح منهم روائح العرق . الزنوج يشتمون النساء، والنساء يتوسلن الى الرب أن يزيل الزنوج والرجال جميعا والهم الذي يعشن فيه . يحدث هذا وكلهم مستغرقون في عملهم يفكون القرب عن ظهور الحمير ، ويتعاونون في نقلها الى داخل المحرم .

عند باب المحرم تقف وضحا طويلة ، مهيبة — خلف انفراجة شفتيها تلمع أسنانها البيضاء — مشيرة الى المكان المخصص للماء .

يشرق وجهها ، تتكون غمازتان على جانبي الفم وتقول :

— يعطيهم العافية .

تتناثر الاصوات : يعافيها ..

في المحرم زوجات الشيخ الاربع ، وبعض الزنجيات ، والاطفال وبناته وبدوية متسولة . وضحا أطول الجميع ، وهي المركز الذي يدورون حوله . كل الحركات تتجه من وضحا واليها .

توقفت خيزرانة الشيخ عن طرقاتها العصبية . انتصب وسكن في جلوسه . نهض فجأة كأنه انطلق من قذيفة ، مسرعا بخطواته

القصيرة ، وجسده يعلو ويهبط مع كل خطوة . وظهر كالنذير في وسط المحرم : مستقيما ، قذرا ، مشمئزا ، بالــغ الضآلة . قال :

ــ وش هالحس ؟

توقف كل شيء لحظة . انفرج فمه وأصبح أنفه أحد تجاعيد وجهه الكثيرة . ثم ارتفعت يده السوداء الصغيرة التي تشبه المخلب بالخيزرانة وأهوى بها على كتــف زنجي يحمل قربــة ماء . وجه الزنجي العريض يتقلص ، وينشج . قال :

ــ هذي وطفا والله .

ارتفع صوت وطفا : العبد الزفر .

واندفعت خيزرانة الشيخ تهوي في كل الاتجاهــات . رأى زنجيا داخلا يحمل قربة مــاء فضربه على عجيزته وســاقيه وكتفه والزنجي يدب بحمله بثقة وهدوء كأن لاشيء يحدث . ووضحــا تقف منتظرة انتهاء فورة الغضب .

قالت بعد قليل : علامك ؟ وشنهو مزعلك ؟

نظر اليها ، سقطت يده الى جانبه وقال :

ــ قللن حس .

استدار بخفة وعاد الى مجلس الرجال . وارتفع صوت وضحا محايدا ، نسائيا جدا وغير موجه الى أحد بالذات :

ــ قللن حس يا نسوان . فيه ضيوف .

عينا البدوية المتسولة تضطربان بجنون . رأتها وضحا التي لا يفوتها شيء فألقت اليها برغيف خبز .

الفصل الثالث

المساء والليل

الظلام يزحف من صحراء بادية الشام كقطعان ماعز سوداء تنفذ من عمق الافق الشرقي ، والشمس ما تزال معلقة على المرتفعات الشرقية لوادي الاردن . تغيب الشمس فيهطل الظلام في الشرق كندف أسود . التلة تشكل الفاصل بين غبش الليل الاسمر والضوء المتلاشي من الغرب . يعلو الدخان فوق الخيام لولبيا وله لمعة زرقاء . من اتجاه المراعي في الغرب تعلو غيمات غبار ، وبقايا ضوء الشمس الغاربة يتسلل بين سيقان الرعاة والحمير والماشية . كل قطيع من الغنم يتقدمه حمار علق في عنقه جرس . الرجال أشكال سوداء يحدد اطارها ضوء الغرب .

على علو شاهق تندفع طيور صامتة ، ساكنة الاجنحة .

النساء يعددن العشاء ويمهدن المراح لاستقبال الابل والغنم . ويطفو على المكان ثغاء التيوس ، والنعاج ، عواء الكلاب وصهيل الخيول .

ضوء الغروب بلا مصدر ، يستمر لمدة طويلة . الليل مثقل بروائح الاعشاب الجافة ، بعر الماعز ، وروث الدواب ، رائحة اللحم المطبوخ بالجميد ، دخان حطب الرتم والدفلاء ، عطور نسائية عتيقة ، وروائح شجيرات الشيح . تشق الليل نداءات نسائية ، أوامر رجال ، اغاني في الصحراء ، عواء الذئاب والثعالب .

يقدم العشاء على صواني كبيرة . أكوام من الرز فوقها أكوام من اللحم . رأس الخروف في وسط الصينية شاخص العينين يتسلل لسانه من شدقه . ينتهي الرجال من الطعام بسرعة ويمسحون أيديهم . وبعد ذلك يغسلونها بالماء والصابون .

اضيء الكلوب في خيمة الرجال والفانوس في المحرم . هرب الضوء الداكن وسقطت النجوم . ارتفع نباح الكلاب . وبدأت سهرة الرجال . يتكلم رجل ويصغي الاخرون . في المحرم ، النساء يتكلمن في آن واحد . اصواتهن دافئة غامضة .

في مجلس الرجال تروى حكايات تتخللها أشعار . ومعظم الجالسين قد سمعوا هذه الحكايات من قبل . فهم لذا يقاطعون الراوي ويعترضون على بعض التفاصيل . عندما يصل الراوي الى موضع الشعر في الحكاية يمسك بالربابة وينشد . ويعبر الجالسون عن استحسانهم بترديد آخر كلمة في كل بيت من الشعر بشكل جماعي .

في المحرم تصمت النساء عندما يرتفع صوت الربابة وانشاد الشاعر . يستخفهن اللحن فيرددنه من خلال افواه مطبقة . عندما ينتهي الشاعر . يأخذن في التعليق دفعة واحدة . كان هنالك زوجات الشيخ الاربع وبنته الكبرى سلمى وبعض الجارات والزنجيات والبدوية المتسولة . على سيقانهن يغفو الاطفال . امام الكثيرات غليون محشو بالتبغ ، له قصبة من الدفلاء يزيد طولها عن متر .

كانت السهرة هي نهاية يومهن الذي بدا ببرد الفجر والركض مع الحمير والفتيان والزنوج الى آبار المياه . في تلك الساعة تكون عيونهن ملأى بالرمص والنوم ، وانوفهن محمرة من البرد . وعندما يرجعن بالماء تكون الصحراء قد تحولت الى لهبة من النار ، تسفي رملا دقيقا ، ناعما ، لاسعا . ثم يأتي دور الرجال جميعا : الازواج والاقارب والزنوج يلقون بالاوامر والشتائم واللكمات . ثم يلي ذلك الطبيخ والخبيز ولسع النار والدخان . وحديث النساء في مثل هذه السهرات يدور حـول الارواح الشريـرة ، وعواطف الرجـال ، والامراض الخفية التي يشعرن بهـا . وعندما يتحدثن عن الجنس فكأنما يتحدثن عن طقس محرم .

كانت سلمى تجلس صامتة ، تطالع الجميع بعينين مزهرتين . قبلة (علي) على خدها ما تزال لينة ، رطبة ، مدورة ، معلقة لا تسقط ولا تثبت في مكانها . امها تنظر اليها بين آن واخر بقلق ، فوراء هذا الذهول تسكن روح غامضة ، أميل الى الشر ، ووراءه المرض الذي لا شفاء منه ، والذي يلقي بملامحه الغريبة على جسدها .

كان الرجال يراقبون الضابط البريطاني بسخرية يجيدون اخفاءها وهو يخرج بين الحين والحين كراسـة صغيرة يكتـب فيها بعض السطور بسرعة مذهلة ثم يعيدها إلى جيبه الداخلي .

وفجأة ساد الصمت وتبادل الجالسون النظرات . فقد رأوا عيني الضابط يغشاهما الاحمرار على الرغم من أنه ما زال نشيطا ، يقظا . وهم يعلمون أن الاجانب يختلفون عن العرب فلا يستطيعون النوم عندما يصرخ الاخرون فوق رؤوسهم .

تنبهت النساء الى الصمت الذي ساد بين الرجال فقدرن أنهم يستعدون للانصراف وللتو تثاءبت واحدة وهي ما تزال تتحدث فسرى التثاؤب بينهن .

***

مع تقدم الليل كل شيء يتغير ، ترتخي خطوطه وتنفك عقدة لسانه عدا الشيخ فانه يظل صامتا ، مشمئزا ، مشدود الجسد . ينهض فجأة دون تمهيد فيسري تيار من الحركة ينتظم الجميع ويستعد البعض للانصراف . يسرع الى المحرم فتنهض النساء باستعجال حاملات مغازلهن ، والغلايين الطويلة ، واطفالهن ويهرولن مسرعات وتنصرف زوجاته الى مضاجعهن . تدعوه صاحبة الدور : « هنا » . ويصبح الشيخ في المنام شرسا ، يداه كمخلبين تخرمشان ولهاثه ثقيل كالحشرجة ، والرجال من وراء الستار ينادونه مقهقهين :

— على هونك يا لاقي الخير ، على هونك على العجوز ..

يتوتر جسد الشيخ فجأة ، وينخر كأنه حصان ، ثم يرفس المرأة بقسوة وينصرف . والمرأة مخزية مهانة ، تتوجع وتئن .

***

التف الضابط البريطاني بعباءته . تصنع النوم واخذ يصغي . كان ضجرا ، وللتخلص من الضجر أخذ يتحدث عن نفسه كأنه شخص اخر : بريطاني ، ينام في خيمة في جوف الصحراء ينفذ الى أعماق اناس مجهولين للعالم ، يكسب ولاء هؤلاء البدائيين الذين هم على استعداد للقتل لادنى سبب ... رأى نفسه يعيش مغامرة فذة . قسر نفسه على أن يتذكر العراق ، قبائل العنزة ، الجمال وهي ترد الماء بعيونها الواسعة الوديعة ، والرجال خلفها يصيحون (هوي .. هوي ..) .. بعد قليل استغرقته الذكريات بالفعل . ثم رأى المغامر يعود ، يقطن بيتا ريفيا على ضفاف احدى البحيرات ، الملك جورج السادس يستقبله في قصر بكنجهام ويمنحه لقب فارس .

انتزعه من حلم يقظته نهوض الشيخ وانصرافه للمحرم ، وقع

خطواته الخافت ، وصوت المـــرأة وهي تدعوه : هنا . ثم حشرجة الشيخ وأنين المرأة وأعقب ذلك السكون .

حاول ان يجعل ذلك كله مع اجترار الجمال ، وثغاء التيوس الخافت القصير (تذكر المعيز بعيونها الصفراء المنحرفة) ونباح الكلاب المتقطع والاصوات الاخرى التي يصعب تعيين مصدرها (أضاف الى ذلك لمسة درامية يمكن أن تحدث : انطلاق رصاصة يعقبها الصدى والصمت) حاول أن يجعله راسخا في ذهنـــه حتى يكتبه فيما بعد . وأمتعه أن يرى القارىء البريطاني يواجه سوء الفهم ذاته الـــذي واجهه هو عندما كان صبيا فتبدو له الصحراء دائمة الاثارة . ثم أتاه النوم ووجه الملك جورج السادس ينظر برصانة الى شيء ما خلف ظهر الفارس الجديد .

* * *

كانت فاطمة تنام لصق ستارة المحرم الخلفيـــة . ولهذا كانت تسمع حركة الزواحف وهي تمر بين الاعشاب الجافة ، ووقع أقدام مارة ، أو خلوة رجل وامرأة . تسمع ذلك في نومها ويقظتها . كان نومها لصق الستارة يعطيها احساسا بالحرية ، بانها تعيش خارج الخيمة .

كانت ابنتها تتمدد بجانبها . امسكـــت سلمى يدها ، داعبتها برفق ، ثم أدخلتها من فتحة الثـــوب لتحك لها ظهرهـــا . وسلمى مستسلمة ، مستمتعة بملمس اليد الجافة على ظهرها .

احست الام بيد سلمى تضغط على يدها . كان ذلك قبل ان تسمع الصفير المتقطع ، الذي تنبهت له الفتاة . تزحف تحت الستارة وتتجه الى الخارج .

اقتربت الام بوجهها من الستارة ومدت اصبعها وفرجت شقا

فيها وأخذت تراقب . كان (علي) متمددا علـــى جانبه الايسر يغرز كوعه في الارض ويتكىء برأسه على كفـــه . وكانت سلمى تجلس متربعة أمامه . لم تكن تسمع كلامهما ، بل كانت تستدل على المتكلم من جرس صوته ومن حركة رأســـه اذ يهز رأسه هزات خفيفـــة متلاحقة . كان (علي) يقوم بمعظم الحديث ، وسلمى تلقي همسات متقطعة ، سريعة كأنها تحتج ، ثم تصمت . و (علي) يتكلم ويتكلم . واندهشت الام . لقد كان (علي) صموتا دائما فمن أين له هذا الكلام الكثير . (عندما تزوجت الشيخ لم تكن قد رأته الا مرة واحدة.كانت صغيرة تملأ قربتها من البئر . أرعبها وهو يطلب منها ماء ليشرب . كانت عيناه تتفحصانها ، وسألها عن اسم أبيها . اعتقدت أنه يريد بها شرا . وظل رعبها منه قائما . تعودته حتى أصبح جزءا مـــن حياتها ضروريا . فلو لم تكن تخاف الشيخ وتكرهه لاصبحت حياتها مجانية ، بلا طعم كحياة الاطفال . كانت تخون الشيخ مع آخرين : رعيان ورجال من القبيلة وزنوج . كانت تزدريهم ولكنها تحس معهم بمشاركة عميقة تحن اليها دائما) .

سمعت حركة في الخارج فعادت الى المراقبة . عندما تعودت عيناها الظلام رأتهما . كان (علي) يمد يده الى فم ابنتها ، وسلمى تهز رأسها بحركة نصف دائرية وتهمس « ما أريد » ، و (علي) يلح. ثم سمعت صوت المضغ والتمطـــق . فكرت : « ها هـــما يأكـــلان الحلاوة » وأحست بطعمها في فمها . (عندما كانـــت تمر أمام دكان التاجر النصراني كان يحني جسده فوق الدكة ويقول : « تتجوزيني يا بنت؟ » ويضحك، فتقول: «قول لابويا» ويضحك وتظل واقفة. يتناول بضع قطع من الحلوى — تتراوح بين أربعة وستة دائما — ويقول لمن حوله : « عليم الله خلقة نصارى » ، ثم يمد يده ويضع الحلوى في يدها . وعندما تحس بملمسها في يدها تنطلق مسرعة بأقصى سرعة. تسترجع طعمها وتفكر ان الحلوى أيام زمان كان لها طعم ونكهة ، أما الان فهي مجرد صبغة وسكر . . . والحلوى التي أعطاها لهـــا

اسماعيل لها طعم يتسلل الى الانف . اكتشفت أنـــــه يعدو خلفها سائلها وهو يلهث : « وين رايحة يا بنت ؟ » قالت : « وش يخصك أنت ؟ » واعطاها الحلوى ، فقالت : « رايحة لخوالي ورا التلول » وابتعدت . ولكنها اكتشفت بعد قليل انه ما زال يتبعها . كان المذاق ينفذ الى أنفها . فاجأها قائلا : « خذي » ووضع قطعة الحلوى في يدها وقبلها على خدها . كان فمه وأنفه يسيلان . مسحت خدها بيدها ، ويدها بثوبها وأخذت تركض . تطلعت خلفها فرأته عائدا بخطى بطيئة . وعندما تذكـــره بها الآن يضحك ويرد دائمـــا بنفس الاجابة : « قطعت نياط قلبي هذاك اليوم » ، ويضحك .

داهمتها قشعريرة فلفت اللحاف حول جسدهـــا وهي تتمتم واسترخت . كانت رغبة مبهمة ، صاخبة بالفرح والوعود تشعل في جسدها رغبة في احتواء جسد ما . وأتتها اصوات الليل في سيـــاق جديد : حريفة ، لاذعة ، مثيرة للذكرى .. عواء كلـــب نابح خشن النبرات ، قصير النبحات . ترد عليه كلبة بصوت ناحب ، ممطوط ، نحيل وعميق . تسمع صوت العصـــا على ظهرها والرجـــل الذي ينهرها وعواءها المتوجع في آن واحد . حركة الابل وهي تتململ في المراح يشبه عراكا صامتا ، لاهثا . صفير صراصير الحقـــول .. والزواحف وهي تصدر خشخشة وفحيحا خلال تسللها بين الاعشاب الجافة مثيرة الخوف والترقب . تنفس النيام وهذيانهم المتقطع ... وصوت الريح كمواء قطة .. والصمت طنين في الاذنين يقبل متواليا على شكل دوائر سوداء صغيرة كثيرة العدد ، مرتعشة تدور وتدور بسرعة مخيفة .

وكل صوت من هذه الاصوات يثير احساسا ثقيلا في الصدر كأنه الرغبة في البكاء أو الضحك المخنوق .. ثم اتاها النوم .

(من فوق قمة الجبل الشاهق كانت ترى هـــذا الخط الاخضر المتعرج . كانت تعلـــم ان تحته نهـــرا — هل هو نهر الموجـــب أم الزرقاء ؟ — اخذت تقترب منتظـــرة أن ترى زهرة الدفـــلاء الكبيرة الحجم وشجيرات الرتم . ويتغـــير المنظر . بركة ماء مستطيلة —

قالت لنفسها هذه بركة زيزياء ــ ماء البركة شديد الزرقة ، مشمس . حول البركة أشجار اللوز والرمان والمشمش ، والاطفال يتسلقون الاشجار ويرمون الثمار في الماء . كانت علاقة مودة حميمة تربطها بالاطفال والاشجار والبركة . وكأن لون الماء الغامض الزرقة ، وضوء الشمس الذي تخلله قد أعد خصيصا لها . وفي العيون رفق وتعبير حزن لما نالها من عناء . ان آلامها والعذاب الذي عانته قد جعل لها وضعا مميزا بينهم والجميع حريصون على ارضائها والتسرية عنها . كانت مع الاطفال يتسللون بين الاشجار وكانوا يطأون الثمار المتساقطة بأقدامهم . وفجأة اكتشفوا صفيحة الحلاوة الطحينية مفتوحة ومعدة لهم . قالت للصغار انها للتاجر النصراني وأخذت تأكل منها ... أكلت كثيرا دون ان تحس بمذاقها أو بشبع ... كل شيء كان يشع بالفرحة غير أن خوفا أصم كان يحاول أن يخنق كل شيء . في أعماقها كانت تعلم أن الصفيحة ليست للتاجر النصراني . كان بامكانها ان تخمن من يكون صاحبها ولكنها لم تجرؤ .

كانت تود أن تختفي بسرعة ولكن ذلك لم يكن لائقا . ثم أتى . قالت للصغار : « ها هو التاجر النصراني » ولكنه كان الشيخ : قذرا ، شرسا ، عيناه بلون الدم . فتأكدت انه هو صاحب الصفيحة . حاولت أن تكذب ولكنها لم تستطع ان تنطق بكلمة واحدة . نظرت حولها مستنجدة بالصغار ولكنهم اختفوا . أمسك الشيخ بالخيزرانة كأنها سيف وصوبها الى أحشائها . صحت من نومها مفزوعة وهي تحس أن سائلا دافئا ينساب بين ساقيها وان حلقها جاف . وخطر لها على التو أن (علي) قد ضاجع سلمى وفضحها .

رفعت سلمى طرف الستارة وتمددت الى جوارها . رائحة عطورها وجسدها كانت قوية نفاذة . قالت : « طولتي الليلة يا حنونتي » .

ضمتها ويدها تتحسس الثوب الذي بلله الندى والشعر جعلته الرطوبة متشابكا حتى اصبح من الصعب ان تمرر يدها خلاله .

كانت سلمى تلتصق بها وعلى امتداد جسدها كانت تحس بارتعاش جسد الفتاة . قالت الام بشبه نواح :

ــ سقعانة يا جنيني » .

وهي تشم روائح جسدها الحريفة التي أشاعها وحللها ندى الليل .

ــ « يمه يا الحبيبة ، علامك ساكتة ؟ وش قال لك ... ؟ » .

والفتاة صامتة ، تنفسها هادىء منتظم كتنفس النيام . توتر جسدها فجأة . قالت :

ــ « يمه ، يقول علي نتجوز ونسافر لعمان ونسكن بيت حجر هناك ، قلت له : وأمي : (تظلي هنا وتصحي مع طلوع الفجر ، وانت والعبيد مصاواه ، والشيخ يسوطك بخيزرانته لما البين يسوطك ؟) يقول : يمه ، نسكن بيت حجر ، ويجيب ، يمه ، خدامه تخدم علي وسيارة . قلت له ما أروح عمان وأخلي أمي ورايا ، يقول يمه ، أمك تيجي وتزورك كل رأس شهر والا اذا تريدين تسكن عندنا دايم دوم . » قلت له : (عمان ما أعرف فيها أحد . وش يوديني !! وأمي ؟ ...) قال نجيبها معانا ...

اخذت الام تنتحب بصوت خافت :

ــ « يامه ، ياالحبيبة ... أريدك لمكبري »

اخذ البكاء يهز جسد سلمى ومضت الام :

ــ « ويوم أموت يا نوارة قلبي ، ياالحبيبة .. من غيرك ينقط بحلقي ويغسلني ويدخلني الكفن يا كبدي ... أريدك لمكبري . » .

★★★

تراءت عمان لسلمى بيوتا حجرية ، تنتشر على مسافة شاسعة جدا لا ترى العين نهايتها . أهلها ذوو وجوه حمراء كوجه الصاحب ، يتكلمون بلهجة بدوية مضحكة، ينادي أحدهم الاخر باسم الصاحب.. غشاها احساس بالاختناق وراء الابواب المغلقة . قالت لنفسها : كيف يتعرفون بعضهم على بعض اذن ؟ وفجأة غشاها انهاك مفاجىء وبدا كل شيء بلا معنى ، (علي) ، وأمهـا والشيخ ، والحب ، واللهفة ... أتاها النوم وتنهداتها ما تزال تهز جسدها كأنها طفل أطال البكاء .

احتضنتها أمها . كانت خائفة . ان ذهبت سلمى الى عمان ..؟ بدا لها الان فقط معنى ذلك : ستكونان وحيدتين . حاولت ان تسكت الرعب الذي تولاها : لو ذهبت الى عمان فسوف ترتاح من صحوة الفجر والضرب .. ستبعد عن الهم والشيخ .. ولكن الرعب والفراغ احاطا بها كنطـاق ... لو مرضـت سلمى فلن تكون أمهـا هناك لترعاها . قد تموت في بلاد غريبة ! أحست ببرودة صماء تنسـاب في عمودها الفقري . حاولت أن تطرد فكرة الموت ، حاولت بكـل كيانها . قالت : « بعد عمر طويل ياحنونتي .. بعد عمر طويل ... » .. سلمى على فراش الموت صفراء ذاوية شفتاها يابستان ، تطلب الماء بصوت ضعيف ولا أحد يأتي به اليها ... وساعة الاحتضار ، الوجه شمعي ! لم تستطع الاستمرار . رددت بصوت مرتفع لتطرد هذا التوارد الذي لا يتوقف لخواطرها : « بعد عمر طويل .. بعد عمر طويل يا الحبيبة » ... واحساس بالعجز يبهظها ... (علي) يجلس مع امرأة عاريـة الرأس والذراعين وابنتها تمـوت دون أن تكون هي بجانبها تقطر الماء في حلقها تخفف مرارة الموت .. وتدفن دون أن تقبلها وتشمها وتبكيها ، دون أن تذبح جديا على قبرها ، دون أن تضع معها في القبر جبتها وثوبها .. وخلال ذلك ينبعث من داخلها لحن حزين ، لحن تنويمة الطفـل ، ينبعث من حركة دائرية يائسة تتكرر دون انقطاع ...

ومع الفجر يقبل يوم آخر كسابقه .

الفصل الرابـع

الزنـــوج

كان الشابان يجلسان على طرف البيدر الغربي . وضع كل منهما بندقيته على فخذيه . قال طافش : « لعنة الله عليك من سنة» .

وجه طافش كالجمجمة : محاجر واسعة وعيون صغيرة غائرة . خدان ضامران تبرز عظمتا الوجنتين فوقهما . واسع الجبين . على جانبيه عروق زرقاء داكنة . الجلد الذي يغطي وجهه كجلد سلحفاة عجوز . أخفى شعره وفكه الاسفل بكوفية من الشـــاش الابيض وعقال أسود رفيع .

كان جذعه فارعا ، مستقيما ، رشيقا .

فرك أنفه بيده وأرسل من أنفه صفيرا خافتا ، وعندما أعـــاد يده الى مكانها كان قد تكون على فمه تعبير اشمئزاز وتأمل . تكلم من خلال تعبير الاشمئزاز محدقا الى الامام شأن من لا ينتظر ردا :

— « لعنة الله عليك من سنة » .

كان الشيخ الجديد يجلس علـى بيدر القمح حيـث تكومت السنابل بشكل دائري ، يرتدي ثوبا لا لون له ، وقد جعل من كوفيته عصابة يربطها حول رأسه جاعلا عقدتها في منتصف الجبين . يضع بندقيته على وركيه . عيناه ملتهبتان وأنفه صغير جـدا في وجهه الاشعر الجاف . كان يركز نظراته على الزنوج الذين ربطوا الى لوح الدراس بدلا من الدواب ، والفتى الذي يقف على لوح الخشب الذي يجرونه يطرقع بسوطه في الهواء ، ثم يهوي به على ظهور الزنوج صائحا : هه !

يندفع الزنوج مسرعين لمسافة قصيـرة ثم يعاودون سيرهم البطيء المتعثر والشيخ يراقبهم بوجـه متصلب كأنه منحوت من الصوان .

عدل طافش من مجلسه . تنحنح وعيناه تحدقان بالبيدر .

نواح النساء يصلهما رتيبا :

ياشيخنا ياللي عليك المعتمد   خليتنا مثل البيوت بلا عمد
ياشيخنا ياللي عليك اللوم   خليتنا بين العـدا والقـوم

ثم يتبع ذلك انتحاب حار . ثم هدأ النحيب وأصبح مجرد أنين .

قال طافش وهو يدير رأسه ويومىء به في اتجاه الخيام التي كانت تبدو من هذا البعد والارتفاع مجرد شريط أسود تنعقد فوقه سحابة من الدخان .

— « ما أحب هذا » .

رد سمحان : « حريم » .

— صار لهن يومين معمرات النواح .

— حريم .

ثم صمتا . كان ستة من الزنوج قد ربطوا الى لوح الدراس. محنيي الظهور والسيقان وقد التصقت قطع قش دقيق بالجزء الاعلى من أجسادهم . كانوا يلهثون وقد انتفخت أنوفهم ، ومخاط أصفر مختلط بالقش والعرق يسيل منها . وعندما يهوي السوط على ظهورهم كان يصدر عنهم فحيح حاد مبتور . الدراسون على البيادر قد ربطوا الى الالواح الخشبية خيولا هرمة ، أو بغالا ، والدراس الذي يقف على اللوح كان يمسك بأعنة الحيوانات التي تندفع مسرعة جارة اللوح الخشبي وراءها :

ومن بعيد ارتفع صوت دراس متغنيا :

دور ي ياحمرا لواحه   دوري ياما احلى خد الفلاحه

قال طافش :

ــ « ما أجت أخبار عن العبد ؟ » .

ــ « من يجيبها ؟ هذاك صار في الغور وضاع بين الغوارنة ».
قال طافش : « عبد يذبح شيخ . عمرها ما انسمعت » .

شرد سمحان بنظراته بعيدا وقال ان الرجل عندما يتضايق فلا بد أن يضرب ، حتى ولو كان عبدا .

صاح الدراس : هه .. هه ..

وأهوى بالسوط فاندفع الزنوج مهرولين . قال طافش :

ــ « العبد ذبح الشيخ ، والفلاح ذبح سحلول عمرها ما انسمعت . ما ظل غير النسوان » .

ولكن سمحان لم يكن مصغيا (عندما عاد البارحة من السهرة لم تكن زوجته قد نامت بعد . كانت تنهنه بالبكاء. جذبها ، فقالت : « يارجل وعمك ممدد ! » . كان الميت ممددا في مجلس الرجال ، عيناه مغمضتان ، وفمه مفتوح قليلا ، وهو بين الرجال كان يفكر في أولئك النساء القادمات من أعماق الصحراء ، يمتطين جمالا محملة بالملح ، لا يستر أجسادهن سوى ثوب ممزق لا يستر شيئا وعباءة . كان لهن مثل هذه الرائحة الثقيلة التي كانت تنبعث من الميت . كن أول من عرف من النساء . ابنته الصغيرة كانت تنام بجوار أمها ، قالت هذا الصباح ، « وين راح عمي الشيخ ؟ » قال لها : «مات» . قالت « أقول وين راح ؟ » . أوضح لها أنه مات وأنهم سوف يدفنونه . وبكت وهي تقول « وأنت أحرص تموت يابوي. احرص » . قال لها أنه عندما يكبر فلا بد أن يموت ولكنها استمرت في البكاء : « أحرص تكبر يابوي وتموت » فقال لها : « على خاطرك ، ما أموت ، على خاطرك » .... وزوجته تطالعهما دامعة العينين ... وكانت تبكي البارحة أيضا عندما انتهى ودفعها بيده — غشاه دوار خفيف وهو في القمة ، وعندما انتهى شعر بغثيان يصعد الى سقف حلقه وتراءت له صور الرجال وهم يغسلون أيديهم بعد الغداء ، وجوههم صارمة قاسية منذرة بالادانة والنبذ ، يحيط بهم صمت منذر بالاذى .. لم يستطع النوم . دفعه الاحساس بالقذارة الجسدية والتقزز من جسد المرأة الذي تتمدد بالقرب منه الى النهوض . أرتدى ملابسه وراح يخوض في الظلمة . دخل الى مجلس الرجال وجلس خائفا بينهم . فم الميت مفتوح قليلا ، تبدو منه اسنانه الصفراء كأنه ينصت لحكاية لا يمكن تصديقها، ووجهه قد بدا مزرقا منتفخا . وشم الرائحة وفي داخله ادراك مبهم انه جاء ليشم هذه الرائحة وحسب ، ليستعيد تلك الذكرى البعيدة لامرأة قادمة من جوف الصحراء استجابت له وأناخت ناقتها خلف كثيب رملي وضاجعها — وأصابه

دوار . وللتو هزه الشوق الـــي جسد امرأته ، الى وجهـــها المبلل بالدمع ....)

وطافش يقول : علامك ساكت ؟

وينتبه الى غناء دراس يصل اليه من بعيد :

دوري ياحمرا يامالية اللهب ..

(ويمد يده الى هويمل « آخذ عنك » ويمسك بالسوط يهوي به على ظهور الزنوج ، يهوي بعنف والسوط يرتفع مخلفا وراءه خطوطا دامية .. يضع في السوط هذا الثقل الذي يضغط على صدره ، هذا الخوف الذي يحيط بجسده كنطـــاق جلدي .. ويمد يده « عنك ، استريح شوية » صوت طافش يصل اليه : « علامـــك ساكت » ويرفع السوط وبكـــل قوته ، بكـــل شوقه للمرأة القادمة من جوف الصحراء يهوي به ..) .

يلتفت الى طافش ويقول :

ــ البنت الزغيرة قالت وين راح عمي ؟ قلت لها مات .

واحس برعب مفاجيء فتمتم : « ربنـــا ياخذها » . (ويحس بالحصان تحته يعدو والهواء يملأ رئتيه ... يمد يـــده الى هويمل « عنك » ويتناول السوط ... الـــذي يترك أثرا داميـــا ، والميت الممدد ، كانت تحيط بجبينه لفافة من القماش الابيض قد تجمد عليها الدم واسود . والرجل الضخم بلحيته الهائلة وصوته الذي يشبه تتابع الطلقات مفتوح الفم يحكي قصة « عرار وعمير » ... وفكر في أن عينيه تنظـــران برعب الى الميت واشتاق الى جسد زوجته كأنه يعرفها لاول مرة) .

الفصل الخامس

طافش يتحدث عن الفلاح الذي دنت منيته

شهدت اليوم الذي قتل به سحلول الفلاح . كنا نسقي على بركة زيزيا والدنيا لهبة نار وخلق كثير حول الماء . الاطفال الصغار يخلعون ثيابهم ويغمرون أجسادهم بالماء والكلاب تستظل بالجدران لاهثة يسيل اللعاب من أشداقها . الابقار أصابها جنون ، بدت قلقة ، مستعدة للنطاح ثم انطلق بعضها يعدو وخوارها يعلو . وطوال الوقت ، والدواب تشرب ، والناس تملأ القرب ، كان سحلول يحدق بالفلاح . كنت أقف بالقرب منه أدل فرسي على الماء وعين سحلول لا ترتفع عن الفلاح . شربت فرسي ، وكنت أريد أن أصل أهلي قبل الغروب . قلت أمر بطريقي على اخوالي . جذبت الفرس وتهيأت للركوب واذا بسحلول يهمزني ويقول :

— « تشوف الفلاح ؟ »

— قلت : ، « أشوفه ، علامه ؟ »

قال : « والله ما تشوفه أنثى بنت أمها وما تقع » .

ولعبت النجاسة بقلبي . قلت نضحك ، وما بظني أن سحلول يبغي قتله . قلت له ومن يدريك انها لم تقع . فعندما تنتهي السهرة وينام الرجال فلا يوجد أنثى مدقوق وتدهـا . عبس وقال صدقت لا يوجد أنثى في ساقهـا رباط . قلت والله لانظر وأرى ما سوف يحدث .

أومأ سحلول للفلاح فتقدم . قال :

— « أشوفك مربى جدايل ، ما قلت والله غير انك بدوي وانت فلاح مقطوع الاصل » .

رد ملعون الوالدين : « كل ابن آدم وله أصل » .

كان سمحان يعرف الحكاية . حول عينيه الى البيادر وقال :

— « منيته دنت » .

قال الفلاح : « كل ابن آدم وله أصل ، ما حدا مقطوع من شجرة . الفلاح له أصل . والبدوي له أصل والعبد له أصل . كل الناس لها أصل » .

غضب سحلول ! «اثبر يا فلاح . أنت لك أصل ؟ اللي أمك واحدة وأبوك ألف » انعقد الشر بوجه الفلاح . قال :

— « أمي لا تجيب سيرتها على لسانك » .

— « منيته دنت »

قال سحلول « لك ع» تحكي يا فلا ح» ويرد يقـول الفلاح :

— « شوف عقب شيخكـو اللي أشقر واللـي أسمر واللي أبيض .. » .

— « منيته دنت ، ملعون الوالدين » .

« اللي اسمر واللي ابيض واللي واللـــي .. » وهجـم على سحلول كالوحش ، أمسكت به غير أنه أفلت مني فعاجله سحلول برصاصة . قلت بفكري : حرام أن يكون هذا الولد فلاحا ، الذي يرى الموت بعينيه ويهجم حرام ان يكون فلاحا .

وبعدها بخمسة شهور قتل اخو الفلاح سحلول . لعنة الله على ذلك اليوم . خليف عاد من عمان ومعه تنكة حلاوة . وكنـا نجلس عنده . وقال واحد — أظنـه عوده — : « يارجـال جارنا الفليليح عنده حرمه تقول شمعة ، عين مثـل عين الحوار والرقبة طول ذراع » وقام يوصفها : « والفم مثـل الفتخة » وبعدها قال : « وين عيال البدو اللي يخلوا فلاح ماله أصل يتحللها » .

وسحلول ساكت ، وكان ، اللـه يرحمه ، دمه يفور كلمـا سمع سيرة حرمة ، وعوده — أظنه بالله عوده — يوصفها . والله واذا بسحلول يقول : « الليلة ألف مرة الفلاح بحضني » . ونحكي وننسى الموضوع ، وعندما نسكـت دقيقة يقول : « الليلة غيـر تسمعون طقطقة ضلوعها » وعيونه محمـرة مثل مشاهيب النار . ثم يصمت ، وخلال ذلك يعبس ويثقل تنفسه ، وان كلمه أحد لا يرد ثم يقـول : « ياعيال هذه حرمتي ، ومـا أبغي أحد منكم يقربها » . بعدها قلت له : « يا سحلول احرص من الفلاح ، اشوفه رافع خشيمه » ويقول سحلول ، الله يرحمه عليًا الطلاق غير احتللهـا قدام عينه ، وغير أخـلي فليليحكم يركب لنـا ابريـق الشاي . هو فلاح والا أكثر « قلت » : يا طافش ، عليًا الطـلاق من ذراعي لو فتح الفلاح فمه غير الحقه بأخوه » قلت له : « أنا قلت اللي عليا، واحنا نشوف عواقبها » .

قال سمحان : « الدنيا نار » .

***

قال طافش :

— ها سمحان ، اشوف سويلم .

كان سويلم يتقدم متوكئا على عصـــاه ، فارشا كفه اليسرى على حاجبيه ، يحجب بها الضوء ، وانفه الحاد الصغير يحدد غايته. هب هواء خفيف من الغـــرب وأثار زوابع محملـــة بالرمال والتبن الدقيق . توقف الدراسون وأخذوا يحجبون التبن عن عيونهم بأكفهم السمراء وهـــم يسخطون بوجوه سوداء ، مغضنة تعسة . وأتى ندب النساء كأنه قادم من طبقات الجو العليا في دوائر كبيرة وانية .

اقترب العجوز وهو يتحسس طريقه بعصاه ، وقال بصوت حلقي مهجور :

— عليان ، ها عليان !

حدثت الاعجوبة . أدار التمثال راسه وقال :

— ياخبر !

— الرجل ريحته فاحت، قم أبوى ندفنه. .كرامة الميت دفنه. . . والعبد منين نجيب لك العبد ؟

رد الشيخ بصوت حاسم :

— الصبح ، ان شاء الله الصبح !

قال سويلم بضيق وقد أصبح صوته أشد عمقا وحدة :

— هذه الساعة ريحته فالت أقول . . أدفنه أبوى ، والعبيد فك عنهم . ماغلطوا . وش سووا ؟ أنت كبيرنا اليوم ولازم تعرف مصلحتنا . قم ادفنه . وفك عن العبيد ، واقعد عند الرجال .

أجاب الشيخ منهيا الحديث بلهجة قاطعة :

ــ الصبح ، الصبح ، ان شاء الله الصبح .

ــ سويلم معه حق ، كرامة الميت دفنه . وهذا جسر ياما مرت عليه قفول .

قال طافش :

ــ سويلم معه حق ، كرامة الميت دفنه . وهذا جسر ياما مرت عليه قفول .

انفجر سمحان على غير توقع :

ــ « يا رجل ، الناس كلت من التعب وكل واحد يروح لشغله وأهله وشيخنا الجديد رابطهم .. يدفنه ويريّح الناس . بعض الرجاجيل يظلوا عيال طول عمرهم » .

***

كان سمحان ما زال يتكلم . وكانت البيادر واكوام القش والتبن ، والشيخ الجديد بجلسته المتصلبة ، والزنوج وهم يسرعون على طرحة القمح ، والدراس ، والبيدر ورؤوس الدراسين ، والحمير والبغال والخيول وهي تجر لوح الدراس وغمامة الدخان المرتفعة من الوادي . . . ذلك كله يبدو لسمحان لوحة ثابتة عناصرها المرئيات والحركة الدائرية الرتيبة ، والوان الغروب .

وللاحظة ان هناك عناصر متحركة واخرى ثابتة في اللوحة كان لابد للمشاهد أن يركز على التفاصيل ليتبين ذلك . حتى الاصوات لا تسمع الا عندما يقع نظرك عليها .

ورأى سمحان ، في طرف عينه اللوحة تهتز ، شعر بضيق

وأبطأ في كلامه قليلا . وعندما سمع دراسا بعيدا يصيح « هه ، هه، هه ، » كان عازما على مواصلة الحديث . لكنه رأى عيني طافش تشردان بنظرة سريعة يقظة ، رآه يرفع البندقية بيديه الاثنتين عن وركيه ويحنـــي ظهره للامام . فكر ان يستعد للنهوض ، وضايقه ، وأخذ يستعد لمواصلة حديثه . ثم انتقل اليه الاحساس بالخطر على شكل صدمة ، كأنه لسعة نار ، التفت فشله المنظر .

كان أول شعور تبادر اليه ان تلك غلطة وسوف يتم اصلاحها . ولكن كل شيء أخذ يحدث بسرعة كبيرة منعته من حسن التصرف ومن الفهم لما يدور . سمع الدراس يصيح : « واويلاه » ، ولم يره ، ولوح الدراس مقلوب ، والزنوج قـد تكوموا بعضهم علـى بعض ويحاولون النهوض ، ولون احمر يلوّن القش ، قال لنفسه : « أهذا دم ؟ » وزنجي يرفع العصا فوق رأس والدم عالق بها والشيخ ينحني في جلسته واضعا يديه على رأسه ، وسقطت العصا مرة ثانية على رأس الشيخ وفي نفس اللحظة انفجرت طلقة على شماله ، أصمت أذنيه ، وملأت رائحة البارود أنفه ، ورأى الزنجي يهوي على التو — يهوي كأنه كيس دون صراخ أو صوت ، ودون أدمية . رأى فقط الدم ينبثق من جبينه ، ثم راه يميل على ظهره بانحراف نـحو اليمين . وخطر له ، دون أن يتوقف ليفكر في ذلك :

« اذن فالزنوج يموتون هكذا » .

يذكر بعد ذلك ان زنجيا أسرع نحو الشيخ ومد يديه الاثنتين ليتناول بندقية الشيخ . دوى صوت طلقة فمال نحو الشيخ في بطء . كان وجهه متشنجـا ، وجسـده يرتعش . ورأى للحظـة شيئا لا يصدق : الزنجي والشيخ يحتضنـان احدهمـا الاخر . طلقـة اخرى اصابت الزنجي فانتفض جسده عدة مرات كأن أحدهم يزغزه ، ثم مال محتضنا الشيخ على جانبه الايسر . وعلم بعد ذلك ان الرجال بذلوا مجهودا عنيفا ليفكـوا أيدي الاثنين . كانت أصابـع الزنجي

متشابكة وراء ظهر الشيخ وقد اضطروا الى قطع يده عندما تعذر فكها .

صوب سمحان بندقيته وأخذ يضغط على الزناد ، يضغط ويضغط ، وأذناه متهيئتان لسماع صوت الانفجار وكتفه متوتر العضلات منتظرا صدمة كعب البندقية .. والرصاصة لا تنطلق . سمع أصواتا كثيرة مقبلة ، تزعق وتصيح وصوت الطلقات يتزايد . لمع نور باهر أمام عينيه واخترق الالم رأسه كسكين حادة ، وفي نفس اللحظة تذكر أنه لم يفك أمان البندقية ، ثم انتهى كل شيء .

الفصل السادس

سحلول يقوم بزيارة في منتصف الليل

أراد زيدان أن يطفىء الفانوس ولكن زوجته قالــت أن الظلام يخيفها سألها: تخاف وهو ينام بجانبها، ردت أنه عندما ينطفىء الضوء تشعر أنها نائمة في العراء .

قال : لما نلم شوية الحبــات ، نبيعهن ونشتري دار حدا دار أبوكي .

ردت : مش مهم حدا أبوي ، وين ما بتروح أنا معاك .

أدرك انها تعتذر عن تذمرها من الخيمة ، وسره أن يكون لها هذا الذكاء . قرر أنه لن يغربها بعد هذه المرة . عندما تزوجها كان يعرف أنها من عرق نساء حكيمات وحنونات ، ويشعر على الدوام انها من عنصر أكثر تهذيبا . كان يعتقد انه لو جمع مالا كافيا لشراء بيت وبضعة دوينمات فسوف يصبح مستحقــا لها . ولهذا السبب تغرب هو وأخوه .

قال لها أنه نادم لانه أبعدها عن أمها وصاحباتها ، وفي صوته رنة أسى حقيقي . خاف ان تحتقـره بسبب ذلك . فوجيء بهـا تندفع بجسدها الكبير نحوه وتتعلق به . وفي نفس اللحظة سمع صوت الرجل آتيا من الخارج :

— ها زيدان ، ها زيدان

وقبل أن يرد ، ويندهش لهذا الزائـر القادم في هذه الساعة المتأخرة رأى البدوي يقتحم عليه الخيمة وهو يقول بغضب :

— « علامك ما ترد يا فلاح ؟ »

فنهض لاستقباله . والح البدوي :

— « علامك ما ترد ؟ »

قال زيدان بارتباك :

— « أهلا وسهلا » .

وجلس عندما جلس البدوي وأخذ يشد اللحـاف على جسد زوجته المتمددة ، ضرب البدوي ساق الزوجة مـن فوق اللحـاف بخيزرانته وقال :

— « قومي ، ماتكرمون الضيف ! » .

كان وجه البدوي جافا مستطيلا ، ومن تحت الكوفية المتسخة كانت تنساب جدائل شعره طويلة فاحمة السواد . عينـاه تلمعان بشراسة ووجهه كهرم مستطيل ، أنفه فيه قمته المدببة . على صدره يتقاطع حزامان وضع رصاص البندقيـة في أكياسهمـا الجلدية . انتصب البدوي واقفا ، فاعتقد زيدان انه سوف ينصرف فمـد يده ليصافحه . تجاهل البدوي اليد الممـدودة واستـدار خلف المرأة

المستلقية وهمزها في ظهرها ، وقال : « قومي يابنت ، سخني لي ميه . أريد استحم » .

تعلقت المرأة بعيني زيدان ، غض نظرته ، وراح ينظر الى يديه الكبيرتين الخشنتين . نضت اللحاف عن الجزء الاعلى من جسدها وتناولت ثوبها الاسود وأدخلت رأسها من ياقته . أبعدت اللحاف بساقها وقامت واقفة . تردد الثوب لحظات على عجيزتها قبل أن ينسدل . وبدت ساقاها عاريتين ، ومستديرتين يشوب بياضها حمرة . غشي زيدان شعورا بالاشمئزاز لمرأى الجسد العاري — كأنه رأى أمه عارية .

قال لها البدوي : « همي ! » وعاد الى الجلوس معطيا ظهره لزيدان . جلس هادئا ولكنه منذر بالعنف .

كان زيدان يجلس محنيا ، خجلا من جسده العضلي القوي ، يحس بهذا الجسد كبيرا وفائضا عن الحاجة . تمنى أن يكون كالبدوي خفيفا وسريعا . احتوى البدوي في داخله فأخذ يكره كفيه العريضتين وكتفيه المتدتين — كما خيل اليه — على عرض الخيمة . رأى نفسه بعيني سحلول ، أطل من خلال كبريائه الارستقراطية على هؤلاء الفلاحين بأجسادهم الضخمة ، وحركاتهم البطيئة الثقيلة ، ولكنتهم المضحكة بجرسها الغليظ الرتيب ونطقها المتعثر المتأني للالفاظ فازداد كرهه لنفسه .

أخذت المرأة تجمع قطع الحطب الصغيرة ، وتغرسها في الارض ، مقاربة بين رؤوسها جاعلة اياها على شكل مثلثات مفرغة لينفذ الهواء في داخلها . أخذت تبحث بسبابتها في الرماد عن جمرة ولما مسحت ابهامها بثوبها ، فركت أنفها مخلفة بعض الرماد على طرفه ، ثم استدار جسدها — وهي ماتزال جالسة — وتناولت كيسا جلديا وأخذت تبحث فيه عن كبريت . استدارت

الى الجانب الاخر وتناولت علبة الجاز . بأصابع طيعة سكبت بضع قطرات من الجاز على أعواد الحطب وأشعلت النار .

كان وجهها موردا ، مستغـرقا . تململ البـدوي فأدرك زيدان انها اثارته . وأخذ زيدان يرغـب فيها ، من خلال البدوي، الذي يحتويـه في داخله . وأحس أن رغبته جديدة ، غريبة كأنها رغبة في أحد المحـارم .

كان البدوي يدير له ظهره تقريبـا — لم يكن يستطيع أن يرى سوى جديلة شعره ووجنته البارزة — كانت عباءته تنزلق عن أعلى ظهره الذي بدا مقوسا ، وكان يرتدي قمبازا أبيض . عظمتا كتفيه بارزتان وبينهما يتكون انحدار عميق . شدت عيناه الى تلك الفجوة ، وأخذ يرغب بشـدة في لمسهـا ، في انسياب يده بين العظمتين ، وأحس بملمس الحرير الابيض في أصابعه ، ببروز الفقرات .

أحس فجأة أن عليه أن يفعل شيئا ، أن يحسم امرا بسرعة . اخذ يرتعش ، وهو يسمع نبضات قلبه تدق كالطبول في أذنيه .

ملأ الدخان الخيمة وأحـاط بالفانوس . من خلال الدخـان والدموع التي أثارها في عينيه رأى وجه زوجتـه عنيفا ، متعاليا : مستغرقا في مراقبة النار .

قال البدوي :

— « حطي حطب يا بنت ، حطي حطب » .

كلمات نفذت اليه كأنها لكمة ، جعلتـه يشعر بحدود جسده وبالمسافة التي تبعده عن البدوي وبأن كل منهما وحدة منفصلة لها مكانها على أرض الخيمة . وتكشفت له بحدس مقلق حقيقة الوضع: مغزى الزيارة وعجزه عن فعل اي شيء .

تحاشى النظر الى وجه زوجته . خاف من تلاقي نظراتهما من الالحاح الذي في عينيها الذي يطالبه بان يقدم ويتصرف . فكر : ماذا سيقول البدوي بعد أن يسخن الماء ؟ هل سيخلع ملابسه أمامه ؟ هل يضاجعها على الفراش وجسده مبلل ؟ وهي ، كيف سوف تتصرف ؟ خطر له أنها سوف تعالج الموقف . انها تبدو متماسكة ومعنى ذلك أنها أعدت خطتها . ركن الى هذه الفكرة وارتاح لها .

أخذ البدوي يكح ومع الكحة يرتفع كتفاه وينخفضان .

قال لنفسه أن البنات يحكين لامهاتهن ما يحدث لهن في ديار الغربة . وفي لمحة رأى وجه أمها ، سوق القرية ، ودكاكينها ، رواد القهوة الوحيدة . أشجار الزيتون ، ومئذنة الجامع وضوء الصباح الباكر يشملها كلها . (استل خنجره وغرزه في الفجوة الواقعة بين عظمتي الكتف . كان ظهر البدوي قاسيا كأنه خشب سنديان وهو لم يضرب بالقوة الكافية . باستطاعته أن يرى التمزق الذي أحدثه في قمباز سحلول والخدش الاحمر الصغير الذي لم تنزف منه قطرة دم واحدة ... التفت اليه البدوي . كان يضحك ، مد يده الى البندقية وهو يضحك ، وأطلق النار .. هنا ، هنا في جبينه نفذت الرصاصة وليس مكانها هو الذي يؤلمه فقط ، ولكن رأسه كله فيه دوي وصداع) . شعر بان جلوسه مقرفصا محني الرأس يؤلمه ولكنه لم يجروء أن يعدل جلسته . كان خائفا ، وراغبا في ملاحظة البدوي بعد هذا العنف الذي ملأ خياله منذ لحظات .

من الخارج أتى صهيل حصان . اعتبر هذا نذير خير لسبب لم يتبينه . إنتهى الراوي في بيت الشيخ من أحد أغنياته التي ترافقها الربابة . قال لنفسه : اذن ، فسوف يتم كل شيء على خير .

انتبه الى البدوي يكلم زوجته . صمت ولم ترد زوجته .

ولكنها صوبت اليه نظرة سوداء ، لامعة سريعة ، متواطئة . لم يفهم معناها ولكنها نفذت اليه كنصل حاد . اختلج قلبه وغشاه دوار .

(وجه امها غاضبا ومتعاليا ، تقول له : « احنا جوزنا بنتنا لرجل يازيدان ... هيك تفضحها في ديار الغربة ! » حاولي أن تفهميني .. ، حاولي ان تفهميني « فضحتها في ديار الغربة » .. أجل ، رجل ، انظري .. استل خنجره واندفع يهوي به على ظهر البدوي مرة ، مرتين ، ثلاث مرات ، أربع ، خمس ، ست .. ومال البدوي وهو يرفس بقدميه كأنه جدي ذبح لتوه .. ها هو زيدان يمتطي حصانا وزوجته خلفه ينطلقان عبر الجبال والليل ..)

اكتشف فجأة عيني البدوي في مواجهته . كان يقول :

ــ « أشوفك ساكت . احرص تزعل . »

قال : « لا » .

فقهقه البدوي ، أحس زيدان بالحرج . لم يدر ماذا يفعل . فأخذ يضحك مجاملا . اشاح البدوي بوجهه (هل سيضاجعها وجسده مبلل ؟) ثم مد عنقه في اتجاه المرآة وأشار بابهامه الى زيدان :

ــ « ما هو زعلان » .

وقهقه مرة اخرى . فكر زيدان : ايضحك هو أيضا ؟ والاهانة كحمل ثقيل يحط على صدره . ثم خطرت له نظرة زوجته اللامعة ، المتواطئة وخيل اليه انه أدرك الرسالة التي تحملها : دع كل شيء لي . فسوف أقتل البدوي والصابون يغطي جسده .. ان ذلك معقول تماما ففي نهاية الامر انها هي التي سوف يضاجعها البدوي لا هو .

غير أن شيئا ما قد حدث لا يدري ما هو . زوجته تلقى عليه

نظرة مباشرة ، صريحـــة ، كأنها تستنكر شيئـــا أو كأنها قد ألقت سؤالا وتنتظر الرد عليه . ابتسم البدوي وخاطب المرأة قائلا :

ــ التفكير يعكر الدم .

ثم يخاطبه :

ــ علامك ساكت ؟

ويستدير نحو المرأة ويضحـــك وهي تنظر الى زوجـــها غير مصدقـــة . اذن ، هنالك حديث خاص دار بينهـــا وبين البدوي لم يشارك هو فيه . وهو خلال ذلك يشـــعر بعبء نظرتها المندهشة تلح عليه أن يفعل شيئـــا . قال لنفسه : « ماذا يريـــدان مني ؟ » وغضب عنيف يستولي عليه يحاول بـــه أن ينفلـــت مـــن عينيها الساطعتين بضيـــاء أسود : « ماذا تريد مني هذه المرأة ؟ من أجل ان تظل عنيفة ، مصونة ، لا تمس كأنها ابنة ملك ، أموت أنـــا . . . وما اهمية أن يضاجعها ؟ انه سيده وسيدها وما داما قد رضيا ان يعملا عنده فليتحملا النتائج » . وأخذ يوجه الحديث الـــى أمهـــا : « وماذا يدريني انـــه كان ينوي مضاجعتها ؟ كنت أتصـــور انـــه سوف يستحـــم فقط ثم يعـــود بعدهـــا الى بيته .. وهذه عادتهم في هذه البلاد .. اننا نخدمهم فلا بد ان نفعل هذا .. لماذا سمحت له هي أن يضاجعها ؟ هل كان ذنبي انها فضلته عليّ وأغوته ! » .

وتعلق بهذه الفكرة كأنها طوق نجاة : فضلت البدوي عليه ، فضلته عليـــه . . . وخلال ذلك كان يدرك أن خطأ مـــا في هـــذا المنطق الذي يقنع نفســـه به ســـوف ينكشف : عندما ينصرف زائر الليل ويواجهها هو ، عندما يواجه الفلاحين الاخرين غدا في الحقل ، عندما يجلس مـــع أصحابه علـــى مقهى البلدة ، خطأ سوف يجعله يدرك أنه كان مطالبـــا بان يفعل شيئا ولكنه لم يفعله ثم يتساءل : هل يضاجعها البدوي وجسده مبلل ؟

البدوي يكلم زوجته وهي تنظر الى زوجها بتلك النظرة اللامعة المندهشة . ايقاع كلمات البدوي ماثل في ذهنه كموال نسي كلماته . كان خائفا أن يسترجعها ، وفي داخله يعلم أن البدوي يقول لها كيف تتزوج امرأة جميلة مثلها جلفا كهذا لا يستطيع حمايتها ولا اطعامها . وهي لا ترد الا بهذه النظرة المندهشة الغريبة. غير أنه أقنع نفسه بأنه لم يسمع شيئا .

تعلقت عيناه بظهر البدوي ، بالفجوة بين عظمتي الكتف . وراح يلمسها كما يلمس شيئا مألوفا . كما يضع يده على كتف صديقه . رغبته في ذلك ملحة لا تقاوم . واشتاق أن ينظر اليه البدوي بفهم :

— حميت الميه ؟

سأل البدوي فأومأت المرأة ايجابا . فعلت ذلك بتلقائية . تبين له فجأة أن ما يحدث هو أمر طبيعي تماما . ليس هناك ما يدعو لان ينهار نظام الكون . ان زوجته وهي أكثر ذكاء منه ، قد أدركت ذلك وأنه لا داعي لهذا الخوف والعذاب . وراح يضحك : البدوي جاء اليهم كصديق . خلع البدوي كوفيته وألقى بها على الفراش . بدا بشعره الطويل كفتاة عجفاء . كان يقف متباعد القدمين . أخرج يديه من أكمام عباءته ودفع بها في عنف الى الوراء . ثم التفت خلفه . رأى زيدان فضاقت عيناه :

— انت هنا ؟

تلجلج زيدان . ومضى البدوي غاضبا :

— تريدني أشلح قدامك ! ياعيبك ما تستحي ! اطلع بره . . !

لم يقف ولكنه زحف خارجا من الخيمة على يديه وعجيزته . في الخارج خطر له أن يغادر المكان بعيدا جدا ولا يعود . سمع صوت البدوي يناديه من الداخل :

— ه زيدان ، لا تبعد ، أريد تعمل لنا شاي .

أجاب دون تفكير انه لن يبعد .

الفضاء واسع أسود . بعض الخيام تضيؤها فوانيس عمشاء، يحجبها بين حين وآخر أشباح تروح وتجيء . كان يعلم انه في أحد هذه الخيام يجلس أصحاب سحلول يراقبونه في مغامراته الليلية ويضحكون . وهم قد رأوا النار تشتعل ، ورأوه هو يغادر الخيمة تاركا زوجته لسحلول . شعر بالمذلة والعجز يصفعانه . التفت الى خيمته فرأى الستارة الامامية مسدلة . سار نحوها ، توقف خلفها وأخذ يصغي . سمع صوت رشق الماء .

هبت نسمة باردة من الغرب . فكر : « لا بد أنهم رأوني وأنا اغادر الخيمة » ولم يكن ذلك يعني أي شيء . بحث باصبعه عن شق في الستارة فوجده . وسعه باصبعه وأخذ يطل . كان البدوي عاريا يقرفص على الارض والصابون يغطي رأسه . كان ضئيلا كأنه طفل وفوقه زوجته بجسدها الكبير . كانت تفرك جسده بالليفة ثم تعقب ذلك بسكب الماء . (المسألة عادية . الرجل يريد أن يستحم) . وقرر أنه بمجرد أن تنتهي زوجته من غسل جسده سوف يدخل رأسا ويضع أبريق الشاي على النار .

كانت زوجته تقف خلف الرجل العاري . رآها تمد يدها وتفرك صدره بالليفة . أحس بغثيان فغادر مكانه وسار مبتعدا . وللتو شعر أنه مطارد . تلفت حوله ، ثم توقف وأنصت ولكنه لم يسمع أحدا . قال : « من ؟ » وتاه صوته في الفراغ . قال لنفسه أنها أوهام .

سار في منحدر الارض والهضبة سوداء ترتفع في الجانب الاخر من الوادي . خطواته قلقة على الارض الزلقة المائلة . وهو خلال ذلك يشعر أنهم يترصدونه وسوف يفاجئونه وعليه آنذاك أن يرد على أسئلتهم : ما الذي تفعله هنا ؟ ولماذا تركت زوجتك مع

البدوي ؟ ولماذا رضيت بسحلول ، ونحن الا نملأ عينك ؟ فكر أن يعود ؟ ولكنه عندما تذكر يد زوجته وهي تمتد فوق كتف البدوي شعر بالاشمئزاز وعدل .

توقف واخذ ينصت ، لا شك ان أحدا يترصده ، ان صوت خطواته واضحة . حاول أن يعدو ويتسلق الهضبة ولكن ساقيه لم تطاوعاه . وهو يقول لنفسه : « أهرب يازيدان ، من الان فصاعدا وفي كل ليلة سوف يأتي ... » ... ثم رآه هناك ، أطار جسده منعكس على الماء الصافية . كان يقترب منه بسرعة ، فأسرع ليتفاداه . استطاع أن يميز صخرة ضخمة فاختبأ عند قاعدتها؛ اصبحت خطوات الرجل واضحة الا انه من المؤكد قد تاه عنه ، تريث قليلا قبل أن يواصل سيره نحو الهضبة . اما مطارده فلا بد أنه يئس من العثور عليه وعاد . وعندما كانت تخطر له صورة زوجته كان يراها وهي تمد يدها بالليفة فوق كتف سحلول وتفرك صدره .

ثم أتاه الصوت قريبا ، غير مكترث بالسكون :

— وش هالزول ؟

غشته رغبة مجنونة في الهرب ، ولكن صوت الرجل لاحقه بالحاح سوف يعقبها حتما اطلاق النار ان لم يرد . قال :

— أنا .

— من أنت ؟

نهض واقفا . قال :

— أنا زيدان .

اقترب الرجل دون ان يتكلم . كان جسم الرجل الضخم يدل على أنه ليس بدويا . أخذ زيدان يرتعش :

— بدي اخذ على ايدي ميه .

لم يرد الرجل .

— مين ؟ . خليل ؟ مسا الخير .

والرجل صامت يواجهه .

— فيها نسمة باردة .. مبين بدها تمطر ..

والرجل الضخم يطل عليه دون أن يبادله كلمة .

— كيف المره ؟ مروح ؟ الليل في أوله .. كيف الضغوف ؟ تفضل زي ما بقولوا العرب .. ها ها .. اشرب شاي .. تفضل صحيح .

ثم صمت فجأة . ان خليل يعرف كل شيء . استدار ليمضي :

— تصبح على خير .

أمسكه خليل من كتفه ومنعه من مواصلة السير .

— زيدان ، من فيه عندك جوه ؟

— خليل .. خليل .. انت ..

قال له خليل :

— خذ !

كان المعدن باردا في يده .

الفصل السابع

رحلـــة العودة

فمه جاف وعيناه غائمتان . حتـــى الافكار الصغيرة كانـــت تنهكه . يشعر بيديها تتشبثـــان بقمبازه ، تشدان ياقته على عنقه وهو عاجز عن ان يطلب اليها ان تخفـــف قبضتها . كان الحصان عصبيا . يسير بقفـــزات قصيرة سريعة فيخيل لزيدان إنذاك أن عاموده الفقري قد تحطم ، ثم يتوقف الحصان دون تمهيـــد فيكاد يسقط لولا أن المرأة تشده اليها .

التلال الصخرية تتتالى شاهقة ، مدببة القمم ، سوداء ، على قممها تلمع أضواء عمشاء ويبهظ سمعه أصوات خيول قادمة ، يتردد صدى وقع حوافرها في الجبال . على جانبي الطريق كان يسمـــع حركة الزواحف القلقة بين الاعشاب الجافـــة . تراءت له القرية بشوارعها ، والسائرين في طرقاتها وأم زوجته ولكن ذلـــك لم يكن يعني أي شيء بالنسبـــة له . وللحظة خاطفة تبدو لـــه صورة البدوي : عاريا ، مبللا ، طويل الشعر ثم تختفـــي ويزداد شعوره بالمطاردة .

كان صوته محشرجا ، لاهثا ، هامســا كفحيح الافعى حين قال لها :

— اجرى ، فيه خيل ورانا ؟

— مش شايفه .

احنقه أن يكون صوتها هادئا وطبيعيا .

— عمى يعميكي . أنا سامع حس خيل ورانا .

كان الجو يرعد بوقع حوافر أقدام خيول كثيرة ، دويها يكاد يصم أذنيه .

— انت عمياء .... ؟ !

لم ترد . غضب عنيف يندفع من أعماقه . لكمها بكوعه وأخذ يفح :

— أنت السبب . أنت السبب .. وصوت نشيجها يرتفع .. ولماذا تبكين ؟ لانني قتلت البدوي ؟ كنــت ترغبين فيه .. أليس كذلك ؟ كنتما تتبادلان كلمات الغزل أمــام عيني .. تريدين اذلالي ؟ ونشيجها يعلو ، يعلو مكتوما ، مرا يهز صدرهــا فيشعر بضغــط ثدييها على ظهره . بحــرارة جسدهــا في ظهــره فيتولاه تقــزز ورغبــة في التقيؤ ... ما الذي دعــاه لقتــل البدوي .. مــاذا لو ضاجعها ؟ وماذا يهمه مــن القرية ومــن أهلها ؟ .. وهي كان بامكانها أن تقتله وهو عار أمامها .. صفعته هذه الحقيقة : كــان عاريا أمامها . كيف رضي بذلك ، وكيف رضيت ؟ كان عاريا أمامها وهي تفرك جسده بالليفة ... ! والتنهدات ما تزال تهز جسدهــا قال :

سدى فمك .. الليل بوصل الصوت .. بدك يذبحوني ؟ زعلانه اللي ذبحت البدوي ؟ ..

- أخذ يكره ضعفها ، وتنهداتها ، وفقدانها للسيطرة على نفسها . وفي داخله كان يعتقد أنه ينتقم منها لانها فضلت البدوي ، بل ربما دبرت مع البدوي كل شيء .

انحدرت بهما الطريق الى واد ، فأسرع الحصان ، أطلقت صرخة خافتة وتشبثت يداها به بقوة . قالت :

— « جيت ما أوقع ياخوي . »

رد بعنف « ياريتك وقعتي وانقصفت رقبتك » .

تسلق الحصان الجانب الاخر من الوادي وعندما وصلا الى الارض المستوية بدا لهما سهل ينبسط حتى استدارة الافق . تلمع فيه أضواء متفرقة بعيدة .

سألته : احنا وين رايحين ؟

— اسكتى الليل يوصل الصوت .

واحساس بالتقزز والمهانة يستولي عليه من هذا الجسد الكبير الذي يحتويه من الخلف ، لينا دافئا ، وهذه الانفاس الحارة التي تلفح عنقه . كل ذلك يتم بايقاع يحدده خطو الحصان .

والاحداث القريبة تتداعى مختلفة بلا نظام . خليل .. ثم سار نحو الخيمة .. هل سمع صرخة ؟ انه غير متأكد .. ثم بدو له ما حدث بعد ذلك كمشهد صامت ، البدوي عار يقفز بسرعة ، وزوجته تمسك بالبشكير وتمده بيد وبالاخرى تحمي نفسها .. ثم هنالك فجوة .. ثم قالت : مات .. ولم يكن هنالك فرصة ليسأل : كيف ومن ؟ ... زوجته تفرك يديها وتقول : « ايش اللى عملته يازيدان ؟ » ثم زوجته تحمل الخرج وبندقية البدوي .

***

لمع البرق ثم أعقبه صوت الرعد واندفع المطر . كان يرتعش :

— مريم ... أنا دايخ يا مريم .

وتحيطه بذراعيها وتقول سوف نصل ، لقد وصلنا . وعندما يضيء البرق كان زيدان يرى البدوي — من خلال خيوط المطر — ملقى على جانب الطريق ، عاريا ، أسنانه البيضاء تلمع ، وعيناه شاخصتان . بحث عن الخنجر في صلبه . فلم يجد الا غمده .

— وين الشبرية ؟

فلا يسمع ردها ويرى البدوي ملقى على جانب الطريق ، عاريا ، ضاحكا والخنجر مغروس في كتفه ويتذكر الكلاب ، لقد نبحتهم وهم يغادرون الخيام . واستمر واحد منها يطاردهما مسافة طويلة . ويسأل مريم لماذا لاحقهم ذلك الكلب فتقول انهما وصلا ، بعد قليل سوف يصلان . ويلمع البرق ، فيبدو الماء وقد غطى الارض وتجمع في برك صغيرة في الطريق . ويقول لها انه يسمع صياح ديك .. وأسنانه تصطك ، والطريق موحلة والحصان يسير بصعوبة .

الفصل الثامن

إشتي وزيدي

— ١ —

طال احتجاب المطر . مر تشرين الاول والثاني في أعقابه والسماء ما تزال بيضاء لامعة كعيني امرأة فاجرة لا تسقط منها دمعة واحدة ، وفجر السماء من فجر العباد ، هكذا قال الاب صليبا واصبح يقيم القداس كل يوم . شيخ الجامع قال كلاما مشابها .

في المساء ، تجمع الاطفال ورفعوا خرقة سوداء على راس عصا طويلة من الدفلاء . ساروا في طرقات القرية وهم ينشدون :

يا ام الغيث غيثينا   بلى زرزيع راعينا

راعينا حسن الاقرع   ما يشبع ولا يقنع

— ٢ —

عاد الحراثون مبكرين . لقد استيقظوا قبل الفجر ورأوا المياه تغمر الارض ولكن السماء صافية عدا بضع غيمات تطاردها ريح الشمال الثلجية . ساق الفلاحون ثيرانهم وجمالهم ، وقد حمل كل منهم المحراث والبذار على حماره ، انحدروا بها من قمة التل التي بنيت عليها القرية . بعضهم وضع محرانه على جمل وآخرون على بغال . وأخذوا يزعقون لبعضهم البعض متعجبين كيف أنهم ناموا البارحة والسماء صافية ولا شيء ينذر بالمطر ، وكيف أصبحوا على أرض لبصة يغمرها الماء . قال البعض أنهم خمنوا ذلك ، ففي المساء كانت هنالك نسمة غربية رطبة ، واعتذر الآخرون قائلين أن الحارة الشرقية تحجبها قمة التل عن الريح فيفاجأون به دائما ، وان نساءهم قد نمن دون أن يدخلن الدجاج والخراف من الحوش ، وهكذا فلم يكن بامكانهم أن يخمنوا كما خمن سكان الحارة الغربية والحارة القبلية .

أخذ اتجاه الهواء يتغير فلم ينتبه أحد لذلك . ومضوا يفركون أكفهم الكبيرة ويتمخطون ، مخلفين وراءهم بضعة أقراص من روث البقر صفراء ، مدورة ، يتصاعد منها البخار ملتويا لولبيا . ولكنهم ما كادوا يربطون المحاريث الى الثيران والجمال والبغال ويستعدون للبذار ، وقد شق بعضهم بمحراثه خطا أو خطين حتى تحولت الريح الى جنوبية غربية ، ولم تمض سوى دقائق حتى امتلأت السماء . بغيوم سوداء محملة بالمطر ، توقف البعض وأخذوا يطالعون السماء . صاح عطية :

— « ياولد ، يافرحان ، غيمة مارة ، دقيقة ويقشعها الشمالي . »

وكأن السماء كانت بانتظار آخر كلمة من عبارة عطية حتى تقول لهم : « خذوا » وكأن قرب ماء انفتحت فوق رؤوسهم . وألح عطية :

ـ « دقيقة ويقشعها الشمالي . »

ورفع وجهه الى السماء . هبت الريح قوية وتوقف المطر لثوان قليلة ثم فجأة زخت بردا بحجم راس الابهام كأنه قطع حجارة صغيرة . فك الحراثون محاريثهم وتبعهم عطية مرغما .

ارتفع صوت متري :

ـ « والله تشرين طلع في كلامه راس ، قام وسواها . . . »

أخذ شوقي يصيح :

ـ « انا قلت ، أنا قلت . . »

كان يتحرك بحيوية ، ومضى بصوته الحاد وقد احمر وجهه :

ـ « أنا قلت الشمس مبارح ما هيه بلاش ، أنا قلت لازم يتبعها مطر » .

قال عطية :

« أنا قلت ، أنا قلت يا ولد ما تبطل كذب » .

رد شوقي :

« أنشد عزيزة يا عطيه ، انشدها ، وان ما قلت أنا هذا الكلام بقطع ذراعي » .

ومضى عطية ممعنا في اغاضته :

« ـ (أنا قلت شمس امبارح ما هي بلاش) يا خوي انت منجم ، والا شفت طبيخ الارمن » .

وسانده متري قائلا :

ـ « هذا شوقي يا عمي فيه بينه وبين ربنا سلكى . . »

وأخذ الجميع يضحكون حتى شوقي نفسه .

ساروا صامتين بعض الوقت . إرتفع صوت عطية فجأة :

ـ « أنا قلت . . قال . . . أنا قلت شمس مبارح ما هيه بلاش . »

وانفجر الجميع ضاحكين . وخبط متري ظهر شوقي وقال :

ـ « بطل كذب ياولد » .

عنـــدما اقتربوا مـــن القرية أتاهم صـــوت جـــرس كنيسة الكاثوليك . توقف البعض وأخذ يرسم اشارة الصليب . والضحكات ما تزال مطبوعة على ملامحهم . قال عطية بضيق :

ـ « والله ما حد رايح الصلاه في هالسمطة . أبونا الله يسامحه ما يقطع فرض لو كانت حتى ثلج » .

قال آخر :

ـ « اللي وده يروح الصلاه هو حر . »

قال متري ضاحكا :

ـ « ما فيه مثل خورينا احنا ياالروم ، ما يفارق منام أم بطرس غير لما تضحى الدنيا . »

فقال عطية دون اهتمام والضيق ما زال منطبعا على وجهه :

ـ « خوريكو يا عمي سبع . »

قهقه متري :

ـ « أسد وأنت الصادق . »

أتى الصحو الى مـرثا دون تمهيـد : فتحت عينيها ثم نهضت وهي تشعر ان شيئا ما قد حدث . كان احساسا مفجعـا غامضـا بكارثة غير متوقعة . وأخذت تدور في وسط الدار كالنحلة لتواجه الكارثة قبل أن تحل . رفعت الغطاء عن العجين ورسمت اشارة الصليب بكفها فوقه وتمتمت :

— « باسم الصليب ورشم الصليب »

ثم خفقته . غطته ثانية ووضعته فوق رأسها وهي تتمتم :

— « تحنن علينا يا رب »

وصور فواجع كثيرة تتراءى لها : الخراف في الخارج ، الدجاج، الجمل ... هل حدث لهـا شيء ؟ فتحـت البـاب فرأت الارض يغرقها الماء . انزلت العجين وأطلقت ولولة . ثم اسرعت الى خم الدجاج لترى المطر قد أغرقه ، ثم قادت الخراف التي تحتمي بالسور الغربي الى داخل الدار وهي تزعق ، ناشرة جوا من الخوف :

— « قومى يا بنت ، المطر غرق الدنيا ! »

واستمرت تزعق ، وتتمخط وتضرب كفا بكف :

— « قومي ! ربنا يوخذك ... » .

والفتاة تنهض محمـرة العينين ، تتمطـى وتتثاءب وتقـول بشكوى : « يا ربي ! » والام تصرخ وتزعق بكلمات سريعة، متتابعة، مبتورة كطلقات رشاش .

نهض الاب واتجه دون كلام الى مربـط الدواب وأخذ يحمل المحراث على الجمل ، ويعد البذار .

غسلت الابنة يديها ووجهها بالماء والصابون ، وسرحت شعرها وأخذت تنظر في المرآة وخلال ذلك تعدل شعرها ، وتفحص أسنانها ، ومرثا في قمة انفعالها وحركتها السريعة تزعق من خلف ابنتها :

« يا ريتك يا أختي ما تتهنى في العريس ! هذا وقته ؟ يا بنت اكنسى الدار وفطرى اخوانك ... »

ويتزايد انفعالها حتى يصعب فهم ما تقول . انها تريد من الجميع أن يقفوا معها ، وبأقصى درجات الاستعداد ، في مواجهة كارثة مرتقبة خفية . وتشعر بالغبن لان عليها أن تواجه هذا الاحساس وحدها . ويتصاعد انفعالها ويعلو الى درجة الاختناق لان الاخرين لا يرون النذر السيئة التي تراها . ان حضورا قويا كحضور زوجها هو الذي يردها الى الهدوء والتماسك .

في الخارج تكونت جوقة من الاطفال وأخذت تغنى جماعة :

اشتى وزيدي . بيتنا حديد
عمنا عطا الله رزقنا ع الله

وخرجت اليهم مرثا وهي تصرخ :

— يا عيال والله لالعن ذيول اماتكو .

فابتعد الاطفال مواصلين غناءهم بصوت أعلى :

اشتي وزيدي بيتنا حديد

— ٤ —

دخل عطية البوابة وقد تشبعت ثيابه بالماء . وللتو رأى الحصان واقفا . قال المرابع الذي يسير بجانبه :

— « ضيوف » .

قابلته زوجته أمام مربط الدواب . قالت :

ــ فيه عندنا ضيوف يالاقى خير !

ترك زوجته مع المرابع تفك المحراث وتربـــط الدواب ودخل الدار . كانت النار مشتعلة ، وعلى مرتبتين متقابلتين ينام رجـــل وامرأة يغطى كل منهما لحاف . القى السلام فلم يرد أحد . لحقت به زوجته وقالت :

ــ جوا من شوية مخروسين من البرد .

قال عطية :

ــ منين الضيوف ؟

ردت المرأة بصوت متلعثم وهي ترتعش :

ــ قوم يا زيدان .. اصحى .

امرأة وحيدة

ستهم

— ١ —

في حي عتيق بيوته ذات طابق واحد ، كان البيت . البـــاب الخارجي على شكل قوس مكسور ، ينحدر طرفاه في انحناء هين ، الى أن يتحول الى خط مستقيم . ويمتد حزام ، بعرض كف اليد ، خلال القوس كله من النقوش البارزة ، الداكنة اللون : أرابيسك ، تتخلله انصاف دوائر وتوريقات ، وكلمـــات بخط كوفي تلتقي عند انكسار القوس (*)

تؤدي البوابة الى ساحة محاطة بمربع من الحجرات ، ودورة المياه المشتركة . في الطرف المقابل للبوابة حجرتان واسعتان يصل بينهما باب صغير في كل منهما سرير نحاسي مرتفع وواسع ، ودكة خشبية ، وبعض الكراسي ، وفي واحدة منهما ، التي تقع على يسار الداخل ، تتكوم أدوات المطبخ : الكانون ، ووابور جاز ، والحـــلل النحاسية ، وأطباق بلاستيك .. وفي هاتين الحجرتين تقطن صاحبة البيت ستهم ، وابنها محمود ، وزوجته فاطمة . وهناك خمـــس حجرات أخرى تؤجرها ستهم (***)

في الصباح تجلس المالكة على شلتة متربة أمام باب حجرتها ،

ويرن صوت القباقيب الخشبية وسط الساحة ، بايقاع متعجل ، والنساء يملأن الصفائح من الحنفية الوحيدة قرب البوابة ، أو يسرعن الى دورة المياه ، أو يدخلن حجرات الاخريات بحثا عن طبق. أو لمجرد رواية حكاية .

نادت المالكة : خدي يا بنت يا زينات .

واقلبت زينات ، سمينة ، منكسرة النظرة ، بيضاء . توقفت امام الام وهي تجفف يديها بثوبها الاسود الطويل . دعتها ستهم للجلوس .

ومن الوجه الاسمر المكتنز ، بلغده ولمسات الشعر الابيض التي تبدو خلال شعرها المصبوغ بالحناء ، برقت نظرة مفترسة . سألتها ان كانت تاخذ حبوب منع الحمل . اصبح وجه الفتاة قرمزيا ، وعلى جبينها تكونت طبقة رقيقة من العرق ، وعيناها معلقتان بعيني العجوز . امسكت الام بيدها ووضعت فيها عشرة قروش ، وهمست :

— اشترى بيهم .

ضحكت الام ، ونهضت زينات مسرعة ، ثقيلة الخطو . اغلقت حجرتها ، واخذت تبكي ، وتضرب صدرها بقبضة يدها ، وهي تشعر بالاشمئزاز من جسدها .

وسكنت ، لم تكن تفكر في شيء . وهي تصغي لجلبة الاحاديث ، وصيحات الباعة ، تناولت المرآة المربعة المكسورة الطرف المستقرة في اطار من الصفيح ، واخذت تنظر الى وجهها . قالت لنفسها : هكذا أصبحت ، دورة مياه .. مجرد دورة مياه .

في المساء ، تحولت الجلبة من الساحة ، الى داخل الحجرات.

في كل حجرة أضيئت لمبة جاز ، وعلقت على الجدار مكونة في السقف دائرة مرتعشة من الضوء ، تبدو في ضـــوء النهار شبه دائرة مـــن السواد . وأهل البيت قد إشتركوا مع سكان الحي في كتابة عرائض يطالبون فيها بادخال الكهرباء . فأتاهـــم وعد بان ذلك سوف يتم قريبا ، وانتظروا زمنا كافيا ، ثم قرروا أن يقوموا بمحاولة اخرى . فقال برعي ، وهو فراش في احـــدى الصحف ، وله عجلـــة أعطته وضعا مميزا ، انه سوف يتصرف . وكان صادقا فبعد أيام جـــاء يرافق صحفيا ومصورا . تحدثوا مع الاهـــالي ، والتقطوا صورا كثيرة ، ترافقها لمعة الفلاش المعمية ، وأكثـــر برعي مـــن الزعيق والاستنكار ، ثم أكد لهم برعى أنه لن تمر ثلاثة أو أربعة أيام ، حتى يروا صورهم في الصحف .

على أن الحي ما زال بدون كهرباء .

★★★

جلست الام ومحمود وفاطمة حول الطبلية ، كان محمود قد خلع عفريتة الميكانيكي الزرقاء الغامقة ، وغسل رأسه وقدميـــه ، وارتدى جلابيته البيضـــاء ، وجلس والماء ما زال عالقـــا بشعره وحاجبيه . كان أمامه دائما شيء خاص . في هذه المرة : طبق بيض مقلي بالسمن . وعلى الطبلية كان طبـــق الفول الغارق بالزيت ، وقطعة جبن بيضاء شديدة الملوحة ، وفجل ، وعدد من الارغفة . ومثل كل الفقراء ، كانوا يأكلون في صمت وغضب .

عندما ينتهي محمود من الطعام ، كان يترك في طبـــقه دائما بعض الطعام ، يضعه بوجه مشمئز حزين أمام أمه ، فتقسمه بينها وبين زوجة ابنها .

كانت الام تراقب فاطمة ، وتحتفظ بملاحظاتهـــا الى الوقت المناسب . كانت فاطمة تأكل برقة ، تقطع لقمة من العيش ، وتغمسها

بأصابعها الثلاث ، بينما خنصرها وبنصرها يرتفعان قليلا ، أصابع طويلة ، لدنة ، لم يورمها الغسيل والعمل المرهق ، وأحست الام بالاعتزاز ، اعتزاز من يملك تميزا ما .

تجمع فاطمة ، بقـــايا المائدة وتسير الـــى ركن الحجـــرة متراخية ، رشيقة ، خفيفة الظل . مع انحناءاتها يتضـــح نضوج الانثى الذي يخفيه الثوب الواسع . تعود حاملة عدة الشاي وتضعها أمام الام .

تضع فاطمة على الطرابيزة كيسا صغيرا من الورق ، به لب وفول سوداني ، ويرتفع صوت قزقزة اللب مميزا ، حادا وســـط فوضى رشفات الشاي ، وصوت الوابور وهمهمات الام .

يضع محمود كباية الشاي الفارغة باناة وينهض ، كأنه زنبلك ارتفع عنـــه الضغط فجأة . ويعلن انه ذاهب الى المقهى . وتحتج فاطمة :

— ما تقعد معانا شويه .

وتعلم فاطمة ، كما تعلم الام ، انه لن يستجيب ، بل سوف يزعق ، ويزعق فعلا ، يتقارب حاجباه الخفيفان ، وتزداد حدة أنفه، وتتوهج عيناه .

ويلمس الخوف وترا شبقا في داخلها ، يجعلها تشعر بزوجها كتلة من العضلات الصلبة والمخالـــب ، متسلطا لصق جسدها ، حادا ، مفاجئا ، وعندما ينصرف عنها يحيطها بفراغ ، يجعلها تحس بخشونة الثوب على بشرتها الحساسة ويغشاها حذر فتتثاءب .

★★★

انقطع وقع الاقدام من الحوش ، واغلقت الحجرات أبوابها . ضجة القاهـرة بعيدة وغير محددة . عندما تركز ستهم سمعهـا تستطيع ان تسمع الجار يتشاجر مع زوجته — صوته اجش غليظ رتيب وصوتها مميز — عندما أجهدها التركيـز ، انصرفت عنهما ، وقالت لنفسها : « يتشاجران على الفلوس كالعادة » .

صرت البوابة الخارجيـة ، واجتاحها ترقب ممتع . عندمـا تفتح البوابة يحدث شيء دائما ، يعقبه صوت القباقيب الخشبية وهي تجتاز الساحة . تنزلق مـن فوق السرير ، وتراقب من شق الباب . يتجه محمود الى حجرة زينات ، وينظر حوله ، يدفع الباب فلا ينفتح . تسمع نداءه الهامس :

— زينات افتحى .

الباب لا يزال مغلقا وهو يعالجـه . يلتفت فجأة خلفه الى حجرة الام فتتقابل عيونهما في الظلام . يستدير نحو الباب ويهمس ، ويلتفت خلفه مرة اخرى .

يسير الى دورة المياه ، ثم يعود سريعـا وعندما يدفع الباب ينفتح .

نسمة هواء تمر على جسدها المبلل بالعرق . فترتعش ، ولكنها لا تغادر مكانها ، تصغي الى تنفسـ فاطمة في الحجـرة المجاورة تسمعها تتحدث في نومها .

تمددت في السرير وهي تكتم ضحـكها . مثل هذه المتعة لها ثمن باهظ ، فسوف تظل يقظة ساعات طويـلة . زينات تتجه الى دورة المياه ، تفكر أن تناديها ، وهي تعلم انها لـن تفعل . سمعت محمود يدخل حجرته .

ارتفع صوت فاطمة في الحجرة المجاورة منادية محمود ، وكان

صوتا نائما ، طويلا ، ممدودا ، راغبا ، فقال لها بهمس (فكرت الام : ما زال خائفا) :

ــ نامي !

وعلى الفور انتظم تنفسها انتظام تنفس النيام .

« يابنتى يازينات مــا جايليش نوم » ويداهـــا تنزلقان على الجسد العرقان .

الساكنة الجديدة

— ٢ —

الحجرة المجاورة لحجرة زينات خلت ، وبعد يومين استقرت فيها ساكنة ، معها ابن في الثانية عشرة ، وبنت أصغر قليلا . من النظرة الاولى أدرك محمود انه لا داعي للاهتمام بها ، فهي مرهقة الوجه ضامرة . وهي في حالهـــا لا تحدث أحدا الا اذا حدثها وحتى عندما يحدثها أحد ، فان نظرتها تنسحب منه ، كأنما تصغي لحوار يدور خلفها . تغادر الحجرة مع ابنها وابنتها في الصباح الباكر ، ولا تعود الا عنـــد الغروب ، فتغلق عليها باب حجرتها ، ولا تخالط أحـــدا .

وفي يوم الجمعة ، تغسل ملابس الولدين وملابسها ، وتخرج بعد الظهر ، وتعود في الليـــل .

في احدى الليالي قالت زينات :

— تأخرت الليلة يعني .

ولم يحب محمود كلمـــة (يعني) ، وفكر : (ستبدأ العكننة) . قال . — ما تأخرتش ، زي كل ليلة .

تنهدت ، وكان معنى ذلك انها تندب حظها العاثر الذي جعلها تعرفه . جذبها اليه لانه يود أن ينهي هذا الشجار السخيف بسرعة ولكنها انفلتت منه . قالت :

— أنا سامعاك فتحت الباب من ساعة .

هكذا هن دائما . عندما يسري الملــل اليه منهن ، ياخذن في الشجا ر. لاسباب يعرفن أنها كاذبة . ثم لاحظ شيئا لم يتبينه عند دخوله ، ان زينات قد لونت خديها بالاحمر ، وأن شفتيها أصبحتا حمراوين كقطعة الكبدة . انها سنيورة حقيقية . قالت :

— بطلت تحبنى زي الاول .

شدها اليه محمود ، مستثارا استثارة حقيقية ، وقال :

— أنا ؟

أبعدته عنها بقوة ، ومضت تقول :

— احنا خلاص قدمنا .

ضحك محمود ولم يرد . عندما تحب النساء يفعلن أشيــاء غريبة .

فجأة قالت زينات بعنف .

— أنا مش عارفة انت شايف فيها ايه ، وهــي عامله زي الغراب !

بدا الغضب في وجه محمود ، لانه تصور انهــا تتحدث عن زوجته . قال :

— هيه مين ؟

— يعني مش عارف ؟

ومَصمصت شفتيها : عامل نفسك مش عارف ؟

ثم تنهدت :

— كان يوم أسود ..

قال محمود :

— بتتكلمي ، بتقولي ايه ؟ هيه مين ؟

— زفته ام علي ..

قال مندهشا :

— ام علي مين ؟

ثم تذكر ان هذا اسم الساكنة الجديدة ، والذي يخطر له لاول مرة ، ان لها اسما . ضحك محمود ، وبعد قليل شاركته زينات في الضحك . لكنها ما زالت غاضبة . ومضت في رنة الشكوى المثيرة للاعصاب ، خاصة وانها تمضي فيها كأنها تكلم نفسها :

— لو شفت أمك ياخوي وهي نازلة دش معاها . باين فاكره معاها قرشين ، وعايزة تجوزها لك .

وما حدث اثار استغراب اخرين غير زينات ، فستهم المتعالية، المقتصدة في الحديث ، اجلست الساكنة الجديدة بجوارها ، وأخذت تتحدث بلا انقطاع : الكهرباء سوف تأتي قريبا ، برعى قال ذلك . جاء بتوع الكهرباء وصوروا الاهالي وتحدثوا معاهم .. ابنتها المتزوجة تسكن عمارة — عندما تقلد زينات الام تمد الالف علامة التفخيم — فيها كهرباء ، وأسانسير ، وفيها سكان عندهم خدم ،

وهي تذهب لزيارة ابنتها كثيرا . وهي سوف تأتي هنا يوم الخميس، وسوف ترينها ، تلبس موضة ..

وعندما انصرف محمود من حجرة زينات تراءت له عينان لامعتان وفخذين بضين ، قويين للجارة وهي تغسل الملابس ، وقال لنفسه :

— انها ضامرة .

نام محمود نوما مضطربا ، رأى خلاله حلما أفزعه . كانت تتراءى له عينان تضيئان بنور أسود خافت في الظلمة . تقتربان منه حتى يكاد يلمسها ثم تبتعدان ، كان يود أن يتجه إلى حجرة زينات ، ولكنه كان يعلم انها في الداخل ، وقد انغرز خنجر في نحرها . تبدو زينات له للحظة ، في ركن مظلم من حجرتها ، شاخصة العينين ، والدماء تغطي عنقها ونحرها وما تبقى من جسدها غير واضح . يصحو مرتعبا عند ذلك ، وعندما يعاوده النوم ، يرى الحلم يتكرر .

في الصباح صحا مرهقا ، غير قادر على التركيز . قال لنفسه وهو يرتدي ملابسه . « يبدو انني أصبت بالبرد » .

غادر الباب الخارجي وفجأة رآها . كان الولد والبنت في المقدمة ، وهي خلفهما تسوي الملاية حول جسدها . عندما انتهت بدا جسدها خلف الملاية متناسقا : خصر دقيق ، وعجيزة مرتفعة ، وكاحل مستدير له لمعة بيضاء . تبعها بحذر ، بسبب شعور مبهم انها لو شعرت به لاختفت . عندما اقترب منها قال :

— صباح الخير يا ام علي .

لم تفاجأ كما كان يتوقع . ادارت رأسها ببطء ونظرت اليه ، نظرت الى عينيه مباشرة . خيل اليه ان زمنا طويلا قد مر ، قبل ان تقول :

ـ صباح الخير .

هكذا مختصرة ، حيية ، محايدة ، مستنكرة . أحس بسخونة تتسلق ظهره ، وقال لنفسه : « من المؤكـد انني أصبت بالبرد » ، وأمام عينيه ذلك البريق الذي انبعث من عينيها : « تشبه الغراب ، صدقت زينات » .

في مساء ذلك اليوم ، بعد العشاء قال محمود انه لن يذهب الى المقهى لانه متعب .

رشت أمه ماء أمام باب حجرتها ، وفرشت حصيرة ، وجلس الثلاثة عليها ، وأشعلت وابور الجاز ، ووضعت براد الشاي عليه . كانت فاطمة فرحـة : ذكرها بنزهتهما في حديقة الحيوانات والجلوس على العشب ومعها الطعام ووابور الجاز . كانت هي ومحمود ينصرفان للتفرج على الحيوانات في أقفاصها ، وكانت تقف كثيرا أمام القرود ، وتضحك . رأت الام وجنتي الفتاة مضرجتين ، فانتقل اليها الشعور بالرضا . فدخلت الحجرة وعادت بعد قليل ، تحمل طبقا من البلاستيك أزرق باهتا مملوءا بالفول السوداني ، واللب ، والبلح الابريمي ، وقطعة ملبن مستطيلة ملفوفة بالسوليفان . ملأت يدها ومدتها الى ابنها ، ثم تناولت قطعة الملبن ، وبعض حبات البلح ، وألقت بها في حجر فاطمة . كانت الام سعيدة بفرح الفتاة ، الى حد بعث في داخلها توقعا وخوفا مبهمين . قالت للفتاة بعد قليل:

ـ افتحي الصندوق وخدي منجاية .

ثم أضافت :

ـ « كليها جوه » .

وهي تفكر في عيون الساكنات .

خرجت زينات من حجرتها ، فبدت الدهشة عـلى وجهها ،

فاعلن محمود بصوت مرتفع انه ربما أصيب بالبرد . سمع ضحكتها المكتومة ، وفكر : « هذا فجر » .

انفتح باب حجرة ، وأحس محمود بقلبه يدق بعنف . خرجت مسرعة ، مسبلة العينين ، نادتها أمه :

— تفضلي يا أم علي .

قالت بصوت خافت :

— يزيد فضلك ، متشكرة ياختي .

دون أن تنظر اليهم، ودون أن تغير من اتجاهها الى حنفية الماء. وخرجت زينات من حجرتها، وتوقفت على عتبة باب حجرتها.

★★★

تمدد محمود على سريره . لم يستطع النوم . فاطمة تغمغم في نومها بكلام غير مفهوم ، وفمها مفتوح قليلا . كانت زينات تكثر من الخروج الى دورة المياه، وعندما تقترب من باب حجرته،كانت تصطنع الكحة . وفكر باعتزاز ، انها لن تستطيع أن تنام هذه الليلة .

فتح عينيه وسأل نفسه : هل نمت ؟ من شق الباب رأى حجرة زينات مغلقة . غادر السرير وتوقف أمام الباب . شعر بالبرد فاتجه الى دورة المياه . بدلا من أن يعود الى حجرته ، سار نحو باب أم علي ، وأخذ ينظر من شق فيه . رأى ساقيها السمراوين عاريتين ، ثم فجأة استجابت لنظراته ، وجذبت البطانية فوقها . غادر بابها وتوقف أمام حجرة زينات . نقر الباب نقرات خفيفة فلم يسمع حركة في الداخل . نظر اليها من شق الباب فرأها نصف عارية . وسمينة، وتتنفس من فمها .

عاد الى حجرته . وهو يكتشف انه لم يعد يرغب فيها .

- ٣ -

الحب بجنون

يلمحها على الطرف الآخر من الرصيف فيدق قلبه بعنف حتى يؤلمه . يحس بملابسه وقد ابتلت بالعرق . ويسير متخفيا بالمـــارة وبعربات الكارو .

قبل أن تميل الى الغورية يغادر الرصيف فيندفع في الشارع . يسمع فرامل عربية تقف بغتة ، وسباب سائق فلا يلتفت . يعترض طريقها :

— مساء الخير يا أم علي ؟

لم تندهش ، كأنها كانت تنتظر ذلك . واصلت السير ، فسار الى جانبها .

سألها :

— بتشتغلي في العتبة ؟

— التحرير .

دون أن توضح ، أهو الميدان أم الشارع . استدارت لتهبط

الى شارع الغورية . التفتت اليه :

— مع السلامة .

بحسم مهذب ، قال :

— عايز أكلمك يا أم علي .

توقفت . أقصر منه قليلا وجهها أسمر ذابل ، وأنفها مستقيم مرتفع في نهايته قليـــلا ، والشفتان دسمتان ، رطبتان مائلتان الى السمرة . أحس أن الكلام الذي أعده لا يصلح . تلعثم ، وانتظرت. نسي ما كان يود أن يقوله ، ابتسمت ، وقالت :

— بكره .

ابتعدت ، وهي تشد الملاية على خصرها وتجذبها فوق رأسها ، ناداها :

— يا أم علي .

ولكنها واصلت سيرهـــا دون أن تلتفت . تبعها . الشوارع تضيق وتلتف ، تتحول الى حواري وأزقة ، ثـــم العطفة التي فيها البيت . وقد توقفت في طريقها أمام مصنع الاحذية ، وصحبت ابنها ، ثم بعد قليل ، كانت ابنتها تسير الى جانبها .

توقف عندما رآها تتجه الى العطفة التي فيها البيت . أحس أن العالم كله ينتهي الى هذا الجدار الذي يسد الشارع . لا شيء أمامه الآن، وقد أضاع الفرصة، سوى أن ينتظر الى اليوم التالي .

في صباح اليوم التالي ، قدر انها ستخرج من البيت وحدها ، وانهما خلال ذلك سوف يتحدثان . ولكنه عندما غادر العطفة ، وتبعها رأى الثلاثة يسيرون . أحس أنه خدع . تخطاها غاضبا ، دون أن يلقي تحية الصباح . سمع ابنها يقول :

— سي محمود .

ردت بشيء لم يتبينه . التفت خلفه والقى تحية الصباح . وواصل سيره ، ملقيا كتفيه الى الخلف ، نافخا صدره وهو يشعر انه مراقب بعيون يحبها .

انتظرها عند العصر قريبا من مدخل الغورية . مالت الشمس الى الغروب ، وشعر بجسده كبيرا وثقيلا ، وهو ينتظر ، وقال لنفسه انها لن تأتي . واستغرق في حلم يقظة (ها هي تقف أمامه ، في عينيها المكر البذيء لامرأة ترغب في المضاجعة . تسأله هامسة : لماذا لم تأت ؟ يقول : أين ؟ تقول : إذن ، غدا على موقف الترام . وتنصرف ، يلهث ويختنق : الآن .. الآن .. لا استطيع الصبر بعد ، ولكنها تتلاشى .) يعود الى نفسه ، ينظر باستغراب الى يديه الكبيرتين ، ثم يكتشف ضجة الشارع حوله .

ويباغت بها واقفة على محطة الترام الضيقة ، المزدحمة في الجانب الآخر من الشارع . رآها تكلم رجلا ، تصوره قريبها ، وتخيلها تحكي له عن ملاحقته — هو ، محمود — لها . تنتابه رغبة في الهرب ، يتردد ، يتظاهر بأنه يتأمل قصر الغوري ، ثم يلقاها أمامه، يتجاوزها بنظرته الى الرجل الذي كان يكلمها ، وما زال يقف على محطة الترام . يرد تحيتها ، فتقول مشيرة برأسها الى الرجل :

— قليل الادب !

يقول انه سيضربه ويستعد فعلا لعبور الشارع فتقول بنفاذ صبر :

— سيبه !

توقف وأخذ ينظر اليها . أرخت عينيها وتنهدت . ثم دون توقع قذفته بنظرة نافذة ، لها بريق ، فغشاه إضطراب لم يستطع السيطرة عليه . قال لها متلجلجا :

— عايزك في كلمه .

كانت تعلم . ادارت ظهرها له وسارت في اتجاه ميدان العتبة. تبعها دون ان يجرؤ على السير بجوارها . تمشي متعجلة ، مسبلة الجفنين ، تائهة . وعليه ان يقول شيئا ، يقول لها كل شيء ، ولا يعود الى ذلك العذاب الذي عاناه في الايام الفائتة . وتطول المسافة وهو يلهث وراءها ، وبدا كأنه يلاحقها وهي تهرب منه . قال :

— أم علي .

لاهثا . فابطأت خطوها دون ان تنظر اليه . حاذاها وأخذ يعتذر . لم يكن يعتذر عن شيء محدد ، بل اعتذر عن ازعاجها ، وعن خشيته ان تكون قد اساءت تفسير سلوكه ، وعن كونه يكن لها — ماذا ؟ — يعني ، احتراما .. وهي تواصل السير ، وهو يجاهد أن يحاذيها ، وان لا تتوه منه وتتلاشى . توقف يبحث عن كلام ، فلم يجد . قال :

— يعني ماقلتيش حاجه .

قالت انه لم يقل شيئا حتى ترد عليه . وتصمت . ويصمت . ويراها تنفلت من يديه ، وقد عادت الاسراع في مشيتها ، وأخذ يسرع هو ليظل محاذيا لها . « ماذا ؟ ثم ماذا بعد ؟ » وهو يشعر بثقل الحاحها الصامت ، يجثم عليه ويطالبه بالافصاح ، بان يستعجل في افصاحه ، فيعلن ، وهو في شبه دوار لا يستطيع معه التحكم في كلماته، انه يحبها، يفكر فيها دائما، يتعذب. عندما رآها للمرة الاولى، قال ثم صمت وهو يراها جالسة تغسل ملابس الولد في الطشت ، ويرى لمعة فخذيها القويين ... ولا يجد ما يقوله بعد .

وعندما يصمت لا تقول شيئا . يرى دكان بائع عصير .. ولكنها تستدير وتقول : يللا نرجع . وعندما وصلا الى موقف الترام كان الرجل ما زال واقفا ، ينظر اليهما نظرة جانبية ، متظاهرا انه يترقب الترام القادم . قالت :

— عندي أولاد ، ومش فاضية للكلام دا ... فتك بعافية .

لم يكن نداء الذي أطلقه خلفها ، ولكنه كان اسشفاثة ، ورأت الدموع في عينيه . وقفت تتنهد ، وتحكم شد ملايتها على صدرها ، وتلفها حول يدها اليسرى . لا فائدة ، ها هي تسقط مرة أخرى . لو كانت تستطيع أن تحبه على الاقل . ولانها لا تحبه ، قالت انها تعتبره كأخيها ، وهي تشعر بجسده الصلب القوي يدمي جسدها بلمسة اليد التي تفتقد الحنو ، وهي تعلم أنه بهذه اللهفة لن يرضيه الا الولوغ فيها حتى الغثيان . ثم يلفظها .

بعد فترة صمت قالت انها هي أيضا تتعذب ، عندما تراه ينسل في منتصف الليل ، ويقف أمام بابها ، يجرحها في خلوتها . وهو يرقبها من خصاص الباب . ويقول هو بصوت مختنق ذليل :

ـ أعمل ايه ؟ أعمل ايه بس يا سعدية ؟!

لا يستطيع أن يفعل شيئا ، ولا هي . . . فذلك مكتوب لهما .

★★★

وعندما تعود عصرا ، يصبح خروجها من حجرتها عذابا . زينات بضحكاتها وتعليقاتها ، وهي تقف بالباب ، وعينا محمود تنفذ اليها كلسعة النار ، بكل الرغبة المتحجرة ، وهي تتعذب بجسدها الذي أصبح موضوع رغبة ، وموضوع حقد تشعر به غريبا عنها ، معاديا ، ومخيفا .

وكلما دخلت ميدان العتبة ، تلقاه على موقف الترام منتظرا ، متوترا . يسيران ، وهو لا يكف عن الشكوى ، هل سيظلان الى الابد هكذا ، متعجلين خائفين ، في طريقهما من ميدان العتبة الى الغورية . . . ؟ الا يستطيعان ان يجلسا سويا ساعة واحدة يتحدثان . . . وهي تعلم أن ذلك ان بدأ ، فلن يتوقف ، الى أن يملها ويهجرها ليبدأ عذابها هي بعد ذلك ، وشعورها بالمهانة والنبذ .

نزلت عند الحاحه وغابت عن المصنع يوما ، وجلسا في حديقة

الحرية . كان يتكلم بـــلا انقطاع ، وسمحت له أن يمسك يدها . وذهبا الى السينما ، وقبلها في الظلام . ولكنه اكتشف انها مستغرقة في مشاهدة الفيلم وانه مهما فعــل فلن يستطيع تحويل انتباهها . وعندما انتهى العرض رأى انها فوجئت به . وعادا الى البيت ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة . (عندما أحبت الطالب، كان ذلك شبيها بالذي يحدث على الشاشة ، ولكنها ليست متأكدة مما حدث بعد ذلك . كل ما تذكره انها ظلت تدق الباب ، وتبكي ، وهو جالس في الصالة لا يتحرك ، لسبب لا تدريه) . وعندما ودعت محمود عند مدخل شارع الغورية ، كانت خجلة من ابنها وابنتها . لم تكن تعرف ، ان كانا قد تنبها لعلاقتها بمحمود ، غيـــر انها كانت تقرأ في عينيهما الادانة . أخذت تعاملهما بخوف، وحذر ، كأنما هما الكبيران ، وهي الصغيرة ، وفكرت انها تسرق من قوتهما لتستمتع .

- ٤ -

العشاء الاخير

وقال لها محمود انه يحبها ، يحبها كما لم يحب أي شيء في حياته ، وانها لو قالت له : أرم نفسك تحت عجلات القطار لما توانى ... ثم توقف عن الكلام فجأة . ورأت انه خائف ، وفكرت إنه يراجع نفسه الآن : ويعتقد انه تورط بهذا التصريح ، انه خائف أن تطالبه بأشياء لا يستطيعها . وكانت حزينة جدا ، حزينة لانه خائف .

★★★

عاد محمود مع الغروب ، وكان مرهقا وجائعا . منذ أيام وهو ينام نوما قلقا ، متقطعا ، وكانت شهيته للطعام ضعيفة . وعندما دخل حجرة أمه رأى صينية (فتة) موضوعة على الطبلية ، وأحس بالدوار ، وهو يشم رائحة التقلية واللحم . لم ير شيئا آخر، واغفل كل العادات الصحية التي تسبق تناول الطعام ، واكل كما لم يأكل قط ، شاعرا بنشوة ، انسته كل توتر ومعاناة الايام الفائتة . بعد الطعام شعر بهبوط وهمود . قال لامه ، انه سوف يمدد جسده على السرير قليلا ، قبل أن يشرب الشاي .

ولكنه نام .

خيل إليه انه نام ثواني قليلة . وكان عازما أن يعود الى حجرة أمه ، ليشرب الشاي غير انه اكتشف أن زوجته تنام الى جواره ، فعاود النوم .

عندما صحا مرة اخرى ، كان الظلام لا يزال سائدا والسكون ثقيلا . حاول أن يعود الى النوم ، ولكنه شعر بضغط الرغبة يوتر ساقيه ، ويمددهما حتى ليكادا يخرجان من السرير ، وأحس بذلك الضغط المؤلم الممتع ، يتمدد في أمعائـه المنتفخة ، ويضغط على خاصرتيه . وهوّم في تلك اللحظة المتراوحة بين النوم واليقظة ، في رؤى شبقة ، زالت فيها كل المحرمات . بدا له كل شيء ممكن التحقيق في غبشة ذلك الخدر المشحون ، وأصبح احتكاك اللحـاف بساقيه العاريتين ، والمخدة التي إنزلقت لتضغط على بطنه المنتفخة ، والبلل الدافىء الـذي اشاعـه عـرقه المنسكب بغـزارة ، . . . أصبح ذلك كله جزءا من الملامسة والعناق المنتظرين . وكانت سعدية هي المركز ، قلب ذلك الانفلات الحاني الطليق لكل الرغبات .

وعندما انفلت من السرير مشدود الجسد ، ملتاثا بالرغبة شعر انه انما ينخرط في ذلك السياق الذي تفجر عـن عمق بعيد الغور . فتح باب الحجرة ، وتوقف أمام باب سعدية . نظر من شقوقه فرآها نائمة ، عارية الساقين وشعرها الطويل يغطي وجهها كقناع .

نادى بصوت خافت أجش .

— سعدية ، سعدية ، أم علي ، سعدية .

اضطربت في نومها ، ومالت على جانبها ، ومّد الصقت ساقيها واقتربت راسها من ركبتيها . الغت لهفته كل حذر ، فدفـع الباب بعنف . ارتج الباب ولم ينفتح . وناداها بهمس خشن مخنوق :

— سعدية ، افتحي الباب .

رفعت رأسها ، وأجالت عينيها المحملقتين بجنون في أطراف الحجرة . ثم عادت الى نومها ، وهي تشد البطانية على جسدها . عاد محمود الى حجرته وهو يلهث ، وبحث في جيوب بنطلونه عن المطواة ، وعندما لامست يداه حديدها البارد ، عاد بها الى باب سعدية . مد شفرتها بين دفتي الباب ، وأخذ يرفع المسمار المعوج الذي يغلق الباب. عالجه حتى ارتفع، فانفتح الباب تحت ضغط يده.

دخل وأعاد المسمار الى موضعه ، ثم سار نحوها ، وهبط على ركبتيه وغاص بين ساقيها . كان وجهها قريبا من وجهه . ورأى عينيها تنفتحان في بطء . لم تقاوم ، ولكنها كانت تحدق فيه بذهول ودهشة ، بعينين شديدتي الاتساع والسواد . وهو ينخر كأنه حصان . فجأة ، قالت :

— محمود ، فيه ناس بره .

— لم يرد .

قالت :

— يا لهوي ، فيه ناس بره .

ازداد تصميمه . انه يفعل ذلك ضد العالم كله ، ولم يعد يهمه شيء . وما سوف يشتاق اليه دائما ويذكره ، أنها إسبلت جفنيها ، وأخذت تتنفس ببطء أنفاسا عميقة ترج صدرها ، ثم اذا بجسدها القوي متقوس ، مشدود الى جسده وقد بدأ ايقاعا عنيفا . . . أصبح فيه هو مجرد مستجيب يتلقى ضربات عظم الحوض بألم ومتعة. وهي خلال ذلك ، تهمهم ، ووجهها مسترخ ، لا يبدو حيا فيه سوى ذلك الشق المضيء بين جفنيها المسبلين .

ولما انتهى ، كان ابنها يغرز كوعه بالمخدة ، ويسند رأسه بكفه ينظر اليهما . يبدو انه صحا منذ مدة طويلة وكانت لا تزال كما غادرها ، مسبلة الجفنين ، منفرجة الساقين ، تتنفس بثقل وبطء ، أنفاسا عميقة ، يرتفع صدرها معها وينخفض .

رفع المسمار وفتح الباب بحرص فرآهن ، واقفات، في الخارج، منتظرات : أمه وفاطمة وزينات . وكن مسلحات بعصي . توقف أمامهن فتراجعن ببطء الى الخلف مفسحات له ثغرة للخروج ، نفذ من خلالها مسرعا. ودون أن ينظر ، سمع خطواتهن تقتحم الباب ، متتابعة .

تمدد محمود على السرير يصغي للضجة في الخارج . كانت جزءا من حركة عامة أخذت تجتاح المدينة كلها ، وفكر محمود أن الفجر قد اقترب . كان صوت الصفعات يأتيه مكتوما ، وسقوط العصا على جسد سعدية ، جعله يتخيل امرأة تنفض الغبار عن سجادة . ثم سمع صوت ابنها عاليا ، مسرسعا ، باكيا :

— سيبوا أمي .

ثم صرخته الموجوعة التي انقطعت بغتة .

كان محمود خائفا وخاويا ، وكل ما يرغب فيه هو أن يؤجل تلك المواجهة بينه وبينهن : سعدية ، امه ، زينات ، فاطمة .

ارتفع صوت عال يقول :

— دم .

ثم صوت صفعة .

وعندما يتقلب محمود على السرير ، كان يشعر أن حركته جزء من سياق ذلك الايقاع، الذي ما زال جسده يستجيب له ، حتى هذه اللحظة .

فكر محمود :

« لماذا لا تقول سعدية شيئا ؟ لماذا لا تدافع عن نفسها ؟ » .

وكأنما كانت سعدية تنتظره حتى يلقي هذا التساؤل ، فيرتفع صوتها نحيلا وأنثويا :

ـ أنا ف عرضكوا استروا عليا ... أنا ...

وتراءت له اليد الكبيرة التي لطمتها عـــلى فمها ومنعتها من الاستمرار ، كانت زينات ، ثم أتاه صوتها مختنقا :

ـ يا بنت الكلب يا عجوز عايزة تخطفي الراجل من مراته !

وصوت عال يرتفع خلال ذلك مرددا :

ـ دم ٠ دم ٠

وهذا صوت زينات. يستطيع أن يتخيل وجهها، أحمر ، عرقان:

ـ ياختي أنا عارفة شايف ايه في الوليه دي ، اللي زي الغراب ... وبعد قليل تقول أمه بحدة :

ـ ياختي يا زينات الولد حيموت بين ايديكي ٠

غفا محمود ، ثم صحا فجأة . سمع صوت جارهم أجش، واثقا. خطر لمحمود انه لا يحق له أن يتدخل بين النساء ، وهو يتصوره ينظر إلى سعدية وهي شبه عارية ، وقد تمزقت ملابسها . يبدو أن الرجل قد أوقف المعركة ، لان محمود لم يعد يسمع شيئا عـــدا الاصوات النسائية ، مرتفعة بالشتائم والنقاش، وصوت الرجل يتخللها غليظا، هادئا داعيا الى التوكل على الله ، مقسما الا تقترب واحـــدة مـــن الولية الغلبانة ٠

وما جعل محمود يقفز من فوق السرير هو قول الرجل لسعدية أن تستر نفسها ٠ تخيله يمـــد الملاية لهـــا ، وكان صوته عاطفا ، متواطئا .

وقف محمود وراء الباب ، ينتظر من شقوقه ، رأى زوجة الجار تقف أمام باب حجرتها ، تضم ياقة ثوبها على عنقها ، ثم رأى أمه خارجة من حجرة سعدية تحمل لحافا ، وهي تلتفت خلفها وتنادي بصوت ضجر :

ـ يا بنت يا فاطمة ...

وزوجته تندفع من الباب خفيفة مسرعة . وبعـــد قليل رأى زينات تخرج تحمل وابور جاز . وفكر : لقد جردوها من كل شيء .. أين الجار ؟ أما زال في الداخل ؟

عاد محمود الى سريره ، وأدار وجهـه الى الحائط . دخلت زوجته بعد قليل وتمددت على ظهرها ، وأنفاسها قصيرة متلاحقة .

في الخارج سمع خطوات سعدية وولديها ، وهم يسيرون في اتجاه البوابة الخارجية ، وهم يفتحونها ، ثم يغلقونها خلفهم .

الخوف

— ١ —

من بعيد بدت له بقعة سوداء . كان ذلك وهو يعبر كوبري قصر النيل في اتجاه الكورنيش . وعندما اقترب رآها تجلس على دكة حجرية . كانت تلف ملايتها حول جسدها وفوق رأسها . من دائرة السواد يطل وجه صغير ، مدور كالقرش .

تباطأ الشاب في مسيره في انتظار أن يجذب انتباهها . سوف يحدق في عينيها ويستطيع بعد ذلك أن يتعرف على مدى استعدادها . لكنها ظلت محدقة في النهر ولم تعره أي انتباه . تردد قليلا ثم جلس الى جوارها . القت عليه نظرة جانبية ، سريعة ، ثم عاودت النظر الى النهر .

فكر الشاب انه واضح تماما وعليها هي أن تقوم بالخطوة التالية . ولكنه تأكد بعد قليل أن ذلك مستبعد تماما، وهو لا يستطيع أن ينتظر طويلا في هذا الصهد . قال :

— « الدنيا برد » (•)

التفتت اليه مندهشة مبهورة ، عيناها واسعتان للغاية ، سوداوان . الجزء الملون من العينين كبير ، أنيق ، يخالط سواده لمعة عسلية . على جبينها قطرات صغيرة من العرق . حاول أن يقول شيئا، ولكن العينين الجادتين، المتسائلتين بخوف قتلتا روح الفكاهة.

بحركة مفاجئة استدارت معطية اياه نصف ظهرها وهي تتنهد ..

في الجانب الآخر كانت أشجار النخيل في وقدة ما بعد الظهيرة محاطة بوهج فضي، وكان الضوء المائع يكمن في فجوات ذؤاباتها ، وله قوام وكأن هذا الضوء هو الذي يمسك باغصان النخلة ويمنعها من الاهتزاز .

أشعل سيجارة وأخذ يدخن . قرر انه عندما ينتهي من تدخين السيجارة سوف ينصرف .

طال الصمت بينهما .

التفتت اليه وقالت :

ـ « الساعة كم ؟ » .

ضحك ونظر في الساعة وقال :

ـ « ليه ؟ » .

تضرج وجهها حتى أصبح قرمزيا . قالت بارتباك :

ـ « علشان نعرف الساعة كام ؟ »

ـ « وبعدما تعرفي الساعة كام ؟ » .

تزايد ارتباكها . قالت :

ـ « بس نعرف الساعة » .

ـ « الساعة سته » .

صمت وأخذ ينظر الى الضفة الاخرى . قال لنفسه انه سوف يشعل سيجارة أخرى بعد قليل وعندما تنتهي سوف يغادر المكان .

فكر أن لها عينين جميلتين ، ولكنه كان يرغب في مغادرة المكان بسرعة ، حقيقة كان يود ذلك . التفتت اليه بعد قليل، بوجهها فقط، وقالت انها تختنق من حرارة الجو ، البيت حار وكتمة ، وفي الخارج الحرارة أشد ولكن هنا أحيانا نسمة هواء ، كما انها لا تحب أن

تعود للبيت مبكرة . تنهدت ، وهي تدلك وجهها بكفيها .

عندما صمتت تبين جمال الفم بشفتيه المكتنزتين . فم للتقبيل . وامتد الحديث بينهما . أين تسكن ؟ قالت في الغورية . قال انه طالب في الجامعة . قالت بود :

ــ « النبي حارسك يا خوي » .

سألته ان كان يسكن مع أهله ، فقال لها انه يسكن في شقة وحده . وابتسم وهو يحدق في عينيها بنظرة وقحة ، عارفة . ارتعش جفناها ارتعاشات متتالية واندفع الدم الى وجهها .

وهي ؟ ماذا تعمل ؟ قالت ان زوجها مات ، عندها ولد وبنت ، تعمل في مصنع ينتج أكياس النايلون .

فكر انهن لا ينوعن أكاذيبهن .

ــ ٢ ــ

لم يكن يحب الاصغاء الى أكاذيب المومسات . كان يشعر انهن يسخرن به ويستهن بذكائه . غير انه كان يسعد عندما يكتشفها . عندما رآها تجلس على الكنبة الاسيوطي ، محاولة ــ دون جدوى ــ أن تدفع قدميها تحتها ، وهي ما تزال ملتفة بملايتها ، قال لنفسه : « انها تبالغ في تمثيل دور الفتاة البريئة » . طلب اليها أن ترتاح . أسبلت جفنيها وقالت انها مرتاحة . قدر ان آخر فصل من فصول هذه المهزلة التي تكررت مرات لا حصر لها ان تتظاهر بالرغبة في الانصراف « جوزي صعب قوي » فيصر هو أن تبقى ، وتلح هي ويلح هو ... ولكنه لن يسمح لها بهذه اللعبة . فلو قالت أن عليها أن تنصرف فسوف يسير الى الباب ويفتحه ، ويقول لها :

ــ « مع الف سلامة » .

لم تقل أن عليها أن تنصرف ، بل راحت تنظـــر الى ما حولها بعينين مندهشتين .

قال :

— «ما تقلعي الملاية » (*)

كانت لهجته آمرة ، تعبر عــــن نفاذ الصبر . أرخت الملاية وجعلتها تسقط عن رأسها . شعرها كستنائي ، طويل ، له لمعة . شعر يحب الانسان أن يضــع أصابعه فيه ويجعلها تنساب حتى نهايته . تحت الملاية بدت ياقة الفستان . كان أحمر داكنا ، مرقشا بدوائر سوداء . ولحظ للتو الانسجام الذي خلقه اللون الاحمر مع حمرة وجنتيها .

اقترب منها وهو يعاني ذلك الدوار الخفيف الذي يجعله عاجزا عن السيطرة على حركاته سيطرة كاملة . التفتت اليه رافعة وجهها وعيناها السوداوان قد خالطهما لون رمادي بدا كأنه ضبابة صغيرة ترتعش فوق عينيها . وهو يتقدم نحوها بوجه مصمم وقد سطعت عيناه ببريق الحمى . توقف عندما رأى الدم يهرب من وجهها وعيناها متعلقتان به ، تومضان وتومضان — وجه طفل داهمه رعب .

أدرك أن هنالك شيئا غير مفهوم يحدث ، شيئا أوقف تقدمه وجعله يشعر بالخوف . ولكنه كان أكسل من أن يغير فهمه لما يحدث.

وعندما انصرفت ، جلس وحيدا . استرجع نظرتهـــا الرمادية المضببة المعلقة بوجهه ، وذلك النداء المبهم الذي كان أشبه بنـــداء الاستغاثة ، وأحس بشكل ما انه خدع ، وانه لم يكن شجاعا بمـــا فيه الكفاية . في المقهى لم يستطع أن يحكي ما حدث . بدا له كعار عليه أن يخفيه .

في اليوم التالي تقابلا على الدكة الحجرية . لم تنظر اليه ولم يبد انها أحست بوجوده . قال لنفسه : « ومن تكون على أية حال ؟

لقد أهنت نفسي كثيرا » . ولكنه لم يجد العزيمة الكافية للانصراف . أشعل سيجارة أخرى . وهي ساكنة لا تنطق .

عندما التفتت اليه لاحظ مندهشا أن وجهها قد تحول تحولا غريبا . برزت وجنتاها ، وكانت هنـــاك مساحات سوداء تحت عينيها . كانت شفتاها ذابلتان . سألها ماذا بها ؟

قالت وهي تتنهد بعمق وتحكم شد الملاية حول جسدها :

ـ « ما أنت عارف » .

قال لنفسه انها العادة الشهرية وهو في أعماقه يدرك انـــه يخدع نفسه .

مرت فترة صمت كان خلالها يحاول أن يقـــرأ في وجهها حقيقة الامر . قال بعد قليل :

ـ «عارف ايه ؟ » .

اندفع الدم الى وجهها وقالت شيئا لم يتبينه . سألها ثانية :

ـ « عارف ايه ؟ » .

حولت وجهها دون أن ترد . حنت رأسها وأخذت تطالع النهر باستغراق . قال لنفسه : « بنت المجنونة ، ماذا بهـــا ؟ » وشعر بنبضات قلبه تدق في رأسه .

مرت فترة كان يتابع خلالها فتاة تحاول أن تقود قاربا صغيرا ولكن المجاذيف كانت لا تطاوعها . كـــان هناك شاب يجلس في مواجهتها ويصدر لها التعليمات . على رأس القارب كان علم ورقي أخضر ، وعلى جانبه رسمت عين حمراء برموش طويلة للغاية وقد كتب تحتها : « زوبه » بخط أسود لامع .

استدارت المراة نحوه وأصبحت في مواجهته . كانت غاضبة ،

أو حزينة ـــ لم يستطع أن يحدد ـــ . قالت بحرارة وهي تنظـــر في عينيه مباشرة :

ـــ « مش عارف ! يعني أنت مش عارف ! » .

منع نفسه من الضحك . « الحدق » لا يضحك في مثل هـــذه المواقف . لم يكن ما في داخله سخرية ، بل فرح رقيق ونادر . ود لو يستطيع أن يلمسها .

★★★

عندما وقفا في الصالة جذبها اليـــــه وقبل شفتيها . كانت ترتعش . وضعت رأسها على كتفه واستكانت . كان جسدها ينبض لصق جسده . فأخذ يداعب كتفيها برفق كأنه يحاول أن يهدىء طفلة طال بكاؤها . ثم انبعثت الرغبة . لما أصبح عناقه عنيفا ـــ ليســـ مجرد عناق على أية حال ـــ انفلتت منه مبهورة الانفاس . كان وجهها ينذر بالبكاء .

ولما كان هذا الموقف يجب أن يصدر عن امرأة لها وضع: طالبة أو موظفة، أو زوجة محترمة ، فقد كان غاضبا يشعر بالمهانة . انها في نهاية الامر لا تزيد عن خادمة . جلس بعيدا عنها ، ودون أن ينظر اليها طلب منها أن تجلس . اشعل سيجارة وحنى رأسه ، وهـــو يفكر : « لقد أهنت نفسي » .

جلست وأنفاسها تتلاحق بسرعة ، وأخذت تلف ملايتها بأحكام حول جسدها ورأسها. تحاشت أن تنظر اليه. وهو كان غضبه يتزايد، لا يصح أن ينهزم أمامها ، ولو انتصر عليها فلن يكون انتصاره ذا أهمية . غير أن التحدي قد ولد في داخله ، ورغم كل النظريات لا بد له أن ينتصر .

ابتسم لها وقال :

— « ممكن ولو فيها تعب تعملي لي شاي » .

وأشار الى المطبخ .

انصرفت بسرعة . فكر انه سوف يبدأ معها خطوة ، خطوة ، ولتذهب الحداقة الى الجحيم. وخلال ذلك كان نبض جسدها يتخلله.

عادت حاملة الصينية عليها كباية شاي واحدة . سألها لماذا لم تعد كباية شاي أخرى . نظرت اليه بارتباك ولم تقل شيئا. أدرك انه كان عليه أن يطلب اليها ذلك . قال :

— « طيب ، اقعدي ، اشربي معايا من الكباية » .

قالت :

— « يا خَبر ! » .

وعادت الى المطبخ تعد كباية شاي أخرى .

قبل أن تنصرف انحنت فوقه وقبلت جبينه . كان ذلك يشبه أن تقبل طفلا . ثم قالت :

— « فتك بعافية » .

واغلقت الباب خلفها .

— ٣ —

صحا من نوم بعد الغذاء واتجــه الى كورنيش النيل . اقنع نفسه أن المسألة كلها نكتة . منذ بداية كوبري قصر النيل كانت عيناه تبحثان عنها . قال لنفسه : « لا بد انها هنالك » واحساس بالفجيعة يحط عليه ، فعينه لم تلتقط تلك البقعة السوداء .

مشهد الدكة الحجرية الخالية كان غريبا ومستحيلا — كانت خطأ ينبغي اصلاحه — لقد ارتسمت الدكة الحجرية في مخيلته وهي

تجلس على حافتها الجنوبية ، ملفــوفة بملايتها ، مستغرقة تطالع النهر لم يعد يتصورها غير ذلك . بدا غيابها مستحيلا استحاله أن يعود الى بيته فيجد أن العمارة قد إختفت وكأنها لم توجد قط .

« سوف تأتي » . كان متيقنا انها سوف تأتي ، لا تستطيع الا أن تأتي . والخوف فيداخله تسرب الى كل جزء من أجزاء جسده وأصبح كأنه صقيع استقر في العظام . أشعة الشمس المنعكسة من الماء تزغلل عينيه ، تنفذ اليها حتى وهما مغمضتان ، وكان ذلك يندرج في سياق المهانة التي يكابدها . قرر أن ينتظر ربع ساعة أخرى ، ان لم تأت ، فسوف ينصرف — عليه أن ينصرف الآن ، فهي ، على أية حال ، لاتستحقأن يشغل نفسه بها . واحساس بالهجر يخنقه — طفل منبوذ تخلى عنه العالم . ولكنه يكابر .

مرت الربع ساعة . وقف « أين يذهب ؟ » بدا وكأنه لا مكان له في هذا العالم .سار بضع خطوات ، ثم جلس على دكة مجاورة . أقنع نفسه انه الآن لا ينتظرها ، يجلس على الكورنيش فقط . ان شقته حارة ، راكدة الهواء ، وهنا — على الاقل — تهب نسمة بين الآن والآخر . تذكر بضيق أن هذه تكاد تكون نفس كلماتها ، عندما قابلها أول مرة على الدكة المجاورة .

أخذ الكورنيش يزدحم بالمتنزهين . عينــاه تلتقطان الالوان السوداء من جميع الاتجاهات . وفي كل مرة يرى ذلك اللون يختلج قلبــه .

خطر له انها قد تأتي وتلقي نظرة من بعيد على الدكة الحجرية فتراها خالية ، فتعود من حيث أتت . فكر أن يعود الى الدكة الاولى ولكن كرامته أبت عليه ذلك . وكان ذلك عذابا لا يطاق ، فقد تأتي .

ثم أخذ قلبه يدق بعنف مؤلم حتى قبل أن يرى المرأة بملايتهــا السوداء . كانت قادمة نحوه . من النظرة الاولى تيقن انها ليست

هي ، ولكن لهفته تزايدت وهي تقترب . للحظة ، اعتقد انها هي ، وخيل اليه انه لو بذل مجهودا كافيا ، لو فعل ما يجب عليه أن يفعله — دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل — لكانت هذه القادمة،لاصبحت، سعدية . وهو خلال ذلك يحاول أن يعدل ويغير في خطوط هــذا الجسد الضخم ، وهذا الوجه المكتنز حتى تتحول ، وتكون سعدية . الفرصة تفلت منه ، والمرأة تجاوزته ، خبل وتشتت يستوليان عليه أن يقول شيئا ، يمنعها من مواصلة السير ، يشرح لها ... تتجاوزه، ويسقط في الكآبة .

جسده يرشح بالعرق . مع عــودة احساسه بجسده نهض وجلس على الدكة الاولى ، وهو يعلم انه لم يعد « حدقا » وانه يهين نفسه ، ولكن ذلك لم يعد له أي معنى . خطر له انها قد تكون قــد جاءت وانصرفت . كيف له أن يتخلص من هذا العذاب ؟!

★★★

في اليوم التالي شعر انه يتحرك بلا دافع ، ولا رغبة في شيء. كان مرهقا وضجرا . الغذاء ، ثم نــــوم الظهيرة ثقيلا ومتوترا . الصحيان من النوم، وهو يشعر بألم في حلقــه بسبب الافراط في التدخين .

كان مرهقا ومتوترا في آن واحد .

اتجه الى الكورنيش وهو يشعر انه كان عليه أن يفعل شيئا لم يفعله . « هل تركت الماء يغلي على البوتاجاز دون أن اطفأه ؟ المفتاح ، أين المفتاح ؟ ها هو » . لم تكن هناك . كأن ذلك منتظرا . استولى عليه غضب أهوج ، جامح — « سوف انتظرها ، وانتقم ، سوف أعلمها درسا لن تنساه أبدا ... » . قد يكون لها عشيق ، ميكانيكي أو خادم في أحد البيوت ، وهي تحكي له عن الافندي الذي لعبت به . لم تمنحه شيئا ، ورغم ذلك فها هو ، في وقدة الظهيرة ،

ينتظر أن تجيء ، دون جدوى . ربما كانا ، في هذه اللحظة، يراقبانه من مكان ما ويضحكان . رأى نفسه بعينيهما : العنق الملتوي يتلفت مراقبا المارة ، التنقل من دكة الى أخرى ، القميص النظيف المكوي ، الحذاء اللامع ... فأخذ يشعر بالاشمئزاز من جسده .

في الليل ، قبل أن ينام ، خطر له انها ربمـــا كانت مريضة . أحزنه ذلك ، وهو يسترجع صورة وجهها المجهد بالمساحات السوداء التي تحت عينيها . أحس أن عليه أن يعتذر ، « ظلمتها » . وهـــو يهبط الى النوم كانت يده تلمس كتفها برفق ويعتذر .

رآها في الحلم . في الجزء الاول من الحلم لم تكن موجودة، غير انه كان لها حضور ملح ، صارم . كان عدد كبير من الناس ينتظرون حضورها . وكان المكان أشبه ببستان كبير ، أو أرض خلاء . حاول أن يتأكد من الساعة ، ولكنها لم تكن في يده . كان متأكدا انها تأخرت عن موعدها مع هؤلاء الناس .

كان المكان مضاء بالكلوبات الباهرة الضوء بدلا من الكهرباء . وكانت تصدر عن الكلوبات أصواتا متصلة. في تلك اللحظة تذكر عبارة تقول أن لينين كان يأتي دائما في موعده بالضبط ولا يفعل مثل الرجال ذوي الاهمية الذين كانوا يعتقدون انهم يبرهنون على اهميتهم عندما يتأخرون عن مواعيدهم . لا يعرف أين قرأها ومن الذي قالها . الا انه من المؤكد انها صحيحة .

ثم رآها تمد سبابتها نحوه . كانت غاضبة للغاية ، وعيناها جميلتان وانيقتان . كانت تقول بحدة :

ـــ عليك أن تدرك الفروق الدقيقة . تأخرت لانني كنت مرتبطة بعمل مهم للغاية .

وأخذت تتحدث مع الآخرين بمودة ، دون أن تفقـــد جديتها . كان موضوع الحديث حول الاهمية القصوى لملء الفراغ بشكل مثمر .

وسمع بعضهم يقول انه كان عليه أن يدرك الفروق الدقيقة .

في اليوم قرر أن يغير نظام يومه : الغذاء في الرابعة بدلا من الثانية ، والنوم في الخامسة ، سوف يصحو في الثامنة وبهذا سوف يتجاوز الفترة المؤلمة في اليوم بالنوم . وما حدث انه في الرابعة شعر بالغثيان والرغبة في التقيؤ من مجرد رائحة الطعام . حاول أن ينام ، فلم يستطع . وقبل الوقت المحدد كان جالسا على الدكة الحجرية أشد ارهاقا ، وأكثر تشبثا بالانتظار .

في جيب بنطلونه كان يحمل مطواة حادة النصل .

★★★

سبعة أيام مرت على اسماعيل أخذ قلقه يتلاشى بعدها ، وأصبحت سعدية — سريعا — مجرد ذكرى لطيفة ومضحكة . قد يراها يوما ما ، ولن يكون ضعيفا هذه المرة .

استعاد اسماعيل حداقته التي اعتقد انه فقدها ، كان يقول لنفسه : « هذا الجنون الذي أتاني » واعتقد ان ذلك يحدث في الاجازة الصيفية ، ويبتئس قليلا . ويتخيل مستمعا متعاطفا يحكي له ما حدث ، مع بعض التعديلات في الحكاية ، يبدو فيها أكثر تماسكا وذكاء ، ولكنه مضحك أيضا . ذلك لا أهمية له ما دام هو الذي يسخر من نفسه .

كان الزمن كفيلا أن يقنعه بتصديق الحكاية في شكلها الجديد ، ولكن ...

— ٤ —

وهو في نوم بعد الظهيرة ، منذ الطرقة الاولى على الباب التي شقت ليلَ نومه كأنها سهم ناريَ علم انها هي . اندفع يعدو . عيناه

مغمضتان ، والعرق يبلله ، وجاكتة البيجامة مفكوكة الازرار . فتح الباب ودون أن يتأكد من هوية الطارق احتضنها . عبر عن لهفته بهذه الضراعة :

« ايه اللي عملتيه ! كنت فين ؟ » ثم : « يا مجرمة ، يا حبيبتي ، يا مجرمة ... » .

وهو يقبل الملاية التي على رأسها وشعرها (لماذا الملاية وشعرها فقط ، وهي ممنوحة له كلها !) . قالت :

— « الباب » .

وهي تشير الى الباب المفتوح .

جلست على الكرسي ، الملاية ما تزال على راسها ، ولكنها أرختها فكشفت عن صدرها حتى قدميها . جلس عند قدميها وقبل ركبتها التي يغطيها الفستان . جذبت رأسه الى صدرها وأحاطته بذراعيها وأسندت خدها الى شعره .

استغرق في تلك العتمة اللينة ، مخدرا بروائحها — عطور عتيقة محملة بتداعيات البخور في حي الحسين ، ويسترجع تلك الظلمة الكثيفة التي أحاطت به عندما دخل جامع قلاوون ، انقطعت الاصوات والاضواء وعيناه لا تستطيعان التعود على الظلمة، وفجأة، في أعلى القبة ، في الزاوية الشرقية كان هنالك شباك ، زجاجه معشق بالالوان الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء ، الوان نقية تتخللها شمس الصباح ، في تلك اللحظة إنكشفت له رؤية الصوفي : عالم الظلمة ، يطل عليه شعاع من الفردوس — . كان يشعر بايقاع ثدييها على جانبي رأسه ، وفي وجهه ، ضغطهما يشتد ويخفت مع تنفسها . يشرب رائحة جسدها وعطوره ، يتوه في ذلك الملمس اللدن ، يحس بها خانقة ، مسكرة ، تنساب موجة ساخنة ، في صدره ، تنتشر في احشائه ، الى حقوية . تتفجر رغبة رعناء في الايذاء والالتهام .

ينتزع نفسه ويقول بصوت خشن ، غريب عليه :

ـ « حاخد دوش ... اعملي شاي » .

وقف تحت الدوش يشهق والتوتر ينساب منه . عند ذاك فقط شعر بحدود جسده ، بأنه هوية منفصلة عن الاشياء المحيطة به . سار والماء يتساقط من جسده خطا متصلا الى حجرة النوم .

★★★

عندما انصرفت بدت الشقة واسعة .

— ٥ —

قالت انها رأت حلما في المنام . عند ذاك قررت أن تبتعد عنه . ولكن قلبها لم يطاوعها . صمتت . نظرتها محدقة ، شاردة ، لا ترى . تنهدت وأخذت تسوي فستانها ، وقالت :

ـ « ربنا يستر » .

قال لها ـ محبا تلك السذاجة ، راغبا في الاستزادة منها ـ كل الناس يحلمون ولكن ذلك لا يجعلهم ينقطعون عن لقاء بعضهم .

أمسك بيدها فجذبها ببطء . قالت ، لا ، بالنسبة لها فان ذلك مختلف تماما ، فهي تحلم أحلاما تتحقق . ذلك معروف عنها .

وضعت يدها على قمة رأسها وأخذت تضغطها . وهي تقول شعر رأسي يقف عندما اتذكر ذلك الحلم . وتصمت . لقد تعود ذلك فلن تتكلم الا عندما تريد .

تدورت عيناها واتسع سوادهما ، وكما يفعل الاطفال أخذت شفتاها تشكلان الكلمات التي تعزم على قولها .

في هذه الحجرة (تتوقف . عيناها تتمليان الحجرة) لا ... أوسع من هذه .. أوسع كثيرا ... ومختلفة عنها . لا بد أن سقفها كان من الزجاج لانه كان هنالك شمس وقصارى زرع وزهور ... وعندما تطل من الشباك ترى اهرامات الجيزة الثلاثة زرقاء كأنهـا دخان ... هي هذه ، ولكن ... سوف أقول لك ، كانت حجـرة أخرى ، ثم أصبحت هـذه الحجرة . وكنا ، أنا وأنت ، جالسين نتحدث ، وأنت تحبني كثيرا وتقول كلام حلو وأنا فرحانة وسعيدة ، سعيدة وأود أن أبكي . ثم ... انتظر قليلا ... ثم كنا في هـذه الحجرة ... كانت الكنبة الاسيوطي التي في الصالة هنـا أيضا ، وأنت ما تزال تنظر في عيني وتقول لي كلاما حلوا . ثم هبت ريـح شديدة ، ريح باردة ومطر ، وكانت السماء سوداء ، الـدنيا كلها سوداء . قمت أنت وأغلقت الشيش والزجاج . كنت تفعـل ذلك بصعوبة لان الريح كانت تدفع الزجاج وأنت تصارع ، ثـم أغلقته فأصبحت الحجرة سوداء ، كحل ، لا يكاد أحدنا يرى الآخر . أعني كنت أراك ولكن ليس بوضوح . ثم سرت أنت الى مفتاح النور ، وقبل أن تضيء الحجرة ، مددت رأسك من الباب الى الصالة وقلت بصوت مرتفع ، خائف :

ـ « يا خبر ! ايه ده ! » .

وسمعت أنا ضحكة خافتة من الخارج . حاولت أن أتكلم ، أن أقول شيئا ولكن صوتي كان محتبسا ، فقلت لنفسي : انهم هم ، انهم هم .

قال لها :

ـ « مين همه ؟ » .

ردت على الفور :

ـ « همه » .

كأن ذلك واضح تمام الوضوح . قال بالحاح :

ــ « همه مين ... يعني ، مين همه ؟ » .

تاهت عيناها ، فمها يبحث عن الكلمات . التفتت اليه وقالت ان ذلك في الحلم . صمتت وهي تكابد ، ثم قالت انها لا تدري من هم ، من يكونون ...

انتفض جسدها ، فدفنت رأسها في صدره وأخذت ترتعش . أنفاسها على صدره تثير موجات حريفة من الحنو ، ان لم يسيطر عليها فسوف تتحول الى رغبة جارفة . أخذ يمسح بيده على شعرها ويقول انه مجرد حلم ، كلنا نحلم ، وبعض أحلامنا يتحقق ، وبعضها مجرد أحلام ... ثم أخذ جسدها يهتز بالبكاء المكتوم ... وفكر أن البكاء سوف يريحها .

غادرته ، وعادت بعد قليل من الحمام وقــد غسلت وجهها ، وجلست على طرف السرير مسبلة العينين ، ساكنة . البكاء أضفى على الوجه رقة ونعومة . مرت فترة لا تقول فيها شيئا . ثم استنام جسدها ، وتنهدت بعمق . كان ذلك أشبه بالعودة من مكان ما . قالت :

ــ « اللهم اجعله خير » .

قال :

ــ « خير » .

ــ ٦ ــ

في محاولاته التي لم تجده حتى الآن نفعا في أن يزداد معرفة بها ، سألها أن كانت تحبه فعلا ؟ ألقت رأسها على صدره بحمية واندفاع واحاطته بذراعيها . كانت تلك هي اجابتها فقط .

ولكن لماذا ؟ ما هو السبب ؟

أحس بقبلاتها على صدره . كان قد اصبح يعرف أن المضي في أسئلته سوف يدفعها الى البكاء . كان هذا يحيره كثيرا ، فهي لا تكاد تعرفه ولا تحاول ذلك ، كما انها لا تشغله بمشاكلها اليومية. فعندما تنتزع نفسها من حمى الالتصاق الجسدي ، تندفع في مونولوجات طويلة ، حزينة ، عن الحب ، والاحلام ، وتنتهي دائما ببكاء لا يدوم طويلا .

كانت مستلقية على ظهرها بقميصها الداخلي تحدق في السقف. فمها كان كفم طفل رضيع يتدور ويتمدد خلال البحث عن الكلمات . نهضت فجأة وغادرت السرير الى المطبخ ثم عادت وجلست على طرف السرير . كفاها مبسوطان على فخذيها نصف العاريين ، تجذب وهي ذاهلة طرف قميص النوم الى أسفل ، وتحدق بنظرة ثابتة عبر النافذة كأنها تتأهب للقفز منها .

قالت وكأنها تتذكر : في شارع طويل ، عريض وواسع ، خال من المارة والعمارات، على الجانبين أشجار مزهرة — زهور بنفسجية فقط ولم ينبت الورق الاخضر بعد — والوقت فجر ، وهنالك ضباب ، وانا أسير في ذلك الشارع ، وحيدة أبكي . تأتي سيارة مسرعة ، الدموع لا تجعلني أرى بوضوح ، فتصدمني السيارة وأموت ... هكذا سوف أموت .

كان احساس بالفجيعة يبهظه . تراءت له ملقاة على الارض ، متجمدة الملامح ، والدم ينساب من طرف فمها . ابناها وقد جلسا في الليل ينتظران أمهما فلا تأتي . لمس كتفها ، وأخذ يهزها ويناديها :

— « سعدية ، سعدية ... » .

كانت عضلات كتفها مشدودة تقاوم . تبين له انها تجلس متصلبة لتمنع نفسها من البكاء ، اذ فجأة غطت وجهها بكفيها وأخذت تنتحب . كانت محنية الرأس ، وكوعيها مغروسين في ثدييها . كتفاها كانا ينتفضان مع انفجارات البكاء المكتوم . ومن خلال بكائها كانت

تقول انها تعلم انه سوف يتزوج الفتاة التي تناسبه ، سوف يظل يحبها ولكن عليه أن يتزوج الاخرى . سوف تبتعد عنه ، ولكن سوف يبحث ، ولن يتزوج الاخـــرى . اذن فعليها أن تضحي بنفسها ، أن تموت .

حاول أن يقول شيئا ولكنه لم يجـــد ما يقوله ، وكانت هي تنتحب . ربت على كتفها وأخذ يحدثها ، يقول انه لا يوجد أخرى الآن ، وهو يحبها ، ولم يستطع أن يستمر .

★★★

دقاتها سريعة متتالية على شراعة الباب . يفتحه فتندفع الى الداخل ، مبهورة الانفاس ، تلقي نفسها بين ذراعيه ، راسها عـــلى كتفه ، تلهث وترتعش وتزداد به التصاقا . يغلق باب الشقة وهي متشبثة به ، يقودها نحو السرير وهي ما تزال تلهث . تلقي راسها الى الخلف وتحدق به . يربكه ذلك ، يقول :

ـــ «ايه ، فيه ايه ؟ » .

ـــ « خايفة ، خايفة موت ! » .

تخفي رأسها في كتفه ، جسدها كـــله ينبض لصق جسده ، يضحك ، يقول :

ـــ « فيه أحلام جديدة ؟ » .

كانت ضحكته متقطعة ، أشبه بالنشيج . ترد هي بجدية ، تقول لا ، ليست أحلاما ، هو احساس ، هو احساس فقط ... تهدأ . يسالها عن صحتها وأخبارها وهو يعلم انها لن تجيب عـــلى مثل هذه الاسئلة . تقول ، انها تود لو كان صغيرا ، جدا ، تصره في منديل وتضعه بين ثدييها ، داخل السوتيان ، ويظل هناك ، تحس به دائما لصق جلدها .

أبعدها عنه . أحس انه يختنق . يطلب اليها أن تعد الشاي ، تمسك يديه ، تنظر اليه بضراعة ، وغشاء رقيق من الدموع يغشي عينيها ، تقول :

ــ « مش عايزة أموت . . . أنا مش عايزة أموت » .

يدفعها بيده دفعة خفيفة ، يقول :

ــ « بطلي السينما الهباب اللي بتشوفيها » .

تنهض . يقول لها :

ــ « الشاي » .

* * *

دخلت بالصينية ، فوقها براد الشاي وكبايتان . قالت وهي تصب الشاي :

ــ « أنت زعلان مني ؟ » .

كان صوتها متهدجا . قال :

ــ « لا » .

دون اكتراث ، ليوقف هذا السيل من الخوف .

وضعت كباية الشاي على الكومودينو ، في متناول يده ، تناولت كبايتها وجلست على كرسي قرب السرير . قال لها :

ــ « بصي لي » :

نظرت اليه . قال :

ــ « مالك تايهة على طول » .

لم ترد . واستمر الصمت . قال :

ــ « مالك ساكتة ؟ » .

نظرت باندهاش ، ثم قالت :

ــ « خايفة » .

لم يقل شيئا. أخذ يشرب الشاي ببطء وأشعل سيجارة .

قالت :

ـ « بتحبني ؟ » .

فكر : أي سؤال هذا ؟ انه يحبها بالطبع ، ولكنه يريدها أن تتوقف عن هذه السذاجة . قال لها وهو يمسك يدها لتسمع ما يقول:

ـ « ايه العبارة ؟ » .

رأى قبضتها تشتد علـى كباية الشاي . أصبحت أظافرها بيضاء . قبلها على فمها وقال :

ـ « طبعا بحبك » .

اندفعت في احدى مونولوجاتها الطويلة . تمسك كباية الشاي الفارغة ، وتقول :

حاولت أن أنساك وابتعد . خلال ذلـك الاسبوع حاولت وحاولت . في النهار أقول لنفسي نسيته . ولكن يحدث أن أشاهد أحدهم سائرا ، أتأمل عظمتي الكتف تبرزان مـن وراء القميص ، ورأسه يتلفت ويراقب المارة ، فتتولاني رعشة ، أقول ، انه هو ، هو ... وتدور الدنيا أمـام عيني ، وأمسك بالجدران خوفا مـن السقوط . في الليل أتوه في هلوسات ورؤى، أظل بين النوم واليقظة، وأظل هكذا حتى يشقشق الفجر وتدب الحركة .

توقفت ، وهي تجفف عينيها بكمها . أحس هـو بقشعريرة تسري في جسده ، وبتيار بارد ينساب في عموده الفقري . فقد كانت تلقي كلماتها بايقاع البكائيات .

ثم واصلت كلامها :

خلال ذلك الاسبوع ، يحدث نفس الشيء كل يوم ، الشيء ذاته دائما ، أكون جالسة في الجنينة القريبة من بيتي أتفرج عـلى

التلفزيون ، ثم أراك جالسا على الدكة الحجرية ، تنظر في ساعتك ، تقف ثم تعود لتجلس ، تتلفت حولك بعصبية . تنتقل الى دكة أخرى تجلس ملوي العنق ، عيناك تتفحصان المارة بحثا عني . ترى امرأة تلبس الملاية ، مثل ملايتي هذه ، تتهلل ، وتسرع لملاقاتها فيخيب ظنك . انها ليست أنـا ... وأنـا أناديك أناديك : يا اسماعيل أتسمعني ؟ اني أناديك أتسمعني ؟ وأتوسل اليك : دعني في حالي ، ارحمني ، وأراك جالسا ، ساهم العينين لا تسمعني ... وأصرخ ، وأصرخ وأنت لا تسمعني ... لا تريد أن تسمعني ... قلت ذلك كله مكتوب عليك يا بنت ...

تصمت . تتعثر كلماتها :

ـ وتلك المطواة التي في جيبك ...

تحت سطح العلمانية والحداقة ، وحياة كـل ما فيها مفهوم ومنتظر انفجر تراث القرون السحيقة من الرعب . كـل دفاعاته انهارت وأحس انه واقع في أسر قدر ملزم . برعب لا حـد له رأى نفسه سجين قوة قسر قاهرة تحدد مصيره وترسم له كـل خطوة يخطوها ، ومهما حاول أن يفلت ، فهو لا يفعل شيئا سوى أن يغوص أكثر وأكثر في رمالها المتحركة .

وفي دوار الرعب الذي يلفه حاول أن يتشبث بتصور مؤامرة متقنة الصنع : التظاهر بالسذاجة ، الغياب المرسوم لمدة سبعة أيام ووضعه تحت رقابة صارمة، مؤامرة يشترك فيها الكثيرون، الكثيرون جدا وهو وحده ضحيتها ... فعلوها ليسخروا منه ، ووقع هو فيها دون تبصر .

قال لنفسه : « هناك أشياء يصعب تفسيرها ... تحدث مصادفات ... اللاوعي ، أحيانا ... » والرعب أصم ، راسخ ، لا مخرج منه .

انحنت عليه ، ثدياها يثقلان الثوب ، ووجهها حان ، حزين ، قالت :

ـ « مالك حبيبي ؟ » .

وراحت تقبل يديه ، وشعره ، وأنفه ، وعينيه ، وعنقه قبلات صغيرة كأنها فراشة تحوم حول جسده . استسلم لها في استرخاء تام ، ممتع . وهبطت عليه السكينة . ثم انفجرت الرغبة ، حادة كحد الموسى ، محنية جسده حتى أصبح كالقوس . احتواها بلهفة ، كأنها المرة الاولى ، وخلال ذلك ، في مؤخرة رأسه يراقب استجاباتها الهوجاء ، لهاثها وهي تندفع نحوه بسعار وجنون ، وسؤال هناك في مكان ما ، في مؤخرة الرأس : هل يمكن أن تكون مؤامرة ؟

ـ ٧ ـ

كان اسماعيل يجلس على الكرسي الاسيوطي مواجها باب الشقة . انوار الشقة مطفأة ، والشراعة ينعكس عليها ضوء السلم . يبدو زجاجها السميك ، ببروزاته الناعمة متلألئا كأنه كريستال . والحديد المشبك الذي يحمي الزجاج من الخارج بالتواءاته ودوائره ، ومقرنصاته يرسم خطوط ارابيسك على زجاج الشراعة شفافة الظل . والشقة واسعة ، وهو في جوف ظلمتها صغير ، محدد .

خطواتها تصعد السلم خفيفة متعجلة . تصخب قدماها أمام الباب وتتريث . يحس بها تلتصق بالباب ، تلقي ثقلها عليه . تحجب الضوء عن دائرة في منتصف الشراعة ، بينما الاركان الاربعة ما زالت مضاءة .

تدق على الزجاج باصبعها دقات خفيفة . تبتعد الى الوراء فيشع الزجاج من جديد . في منتصف الشراعة تماما يلقي اصبعها ظله . ثم يحتوي ظلها المربع الزجاجي كله . تعاود الدق باصابعها، دقات أسرع واكثر حدة ، ثم تنتظر .

يفكر أن يعود الى حجرة النوم ويغلق عليه الباب ، ويشعل سيجارة . ولكنه يظل مكانه . يبتعد ظلهـا فجأة فتعود الشراعة تلمع بقسوة . يؤذي لمعانها عينيه . ساد صمت ثقيل كأن الاشياء من حوله تكتم أنفاسها . وأخذ يسمع خشب الكرسي يقاوم ثقله وهـو يتمزق تمزقات واهنة .

أخذت تخبط حديد الشراعة البارزة بكفيها ، فيهتز الباب كله . وبصوت مختنق سمعها تقول :

— « افتح » .

تتضاءل الكف وتصبح قبضة شبـه مستديرة ، ثم تصبحان قبضتين . تخبطهما بقوة على الحديد البارز الحاد الاطراف كالسكين . ارتعش جسده عندما تصور أصابعها دامية قد انفصل الجلد عـن عظامها . ثم فجأة أخذت تهز الباب وهي ممسكة بحديد الشراعة وتصرخ :

— « مش بتفتح ليه ، مش بتفتح ليه ؟ » .

وتواصل هز الباب ، وتقول :

— « أنا عارفة انك جوه . أنا شايفاك » .

ثم فجأة توقفت عن الدق وغاب ظلها . أخذ نفسا عميقا ومد ساقيه بحذر . سمع صوت راديو من بعيد يذيع انغاما راقصة ، وقطرات الماء تنساب بايقاع خافت ، رتيب من الحنفية .

صمت ، صمت ، صمت ، وهو ينتظر . احتكت قدمها بالارض منبئة عن وجودها .

ثم ملأ ظلها زجاج الشراعة . خبطت باصابعها خبطات خفيفة متباعدة، وانتظرت. ثم الصمت ، وظلها يحجب الضوء عن الشراعة. ثم أخذ يسمع صوت بكائها . فجأة أمسكت بيديها حـديد الشراعة

واخذت تخبط وجهها عليه ، مرة واثنتين وثلاثة ، وهي تردد بصوت نحيل ، باك :

— « إفتح ، إفتح » (*)

رأى يديها ترتفعان الى أعلى ، وصوت نحيبها بدا واضحا . انساب الظل مبتعدا واخذت الشراعة تعكس ضوء السلم . استطاع أن يميز شبحها وهي واقفة . من الادوار العليا سمع صوت امرأة تنادي البواب ، وسمع نفير عربة قادما من الشارع . ثم هـــدأ كل شيء . وصله وقع خطواتها وهي تعبر فسحة السلم ثم وهي تهبط الدرجات ...

الهذيان

— ١ —

شقة فاخرة

كانت الدفاية الكهربائية كحلية اللون طويلة وضيقة ، وعلى طول امتدادها تمتد شمعتان متوهجتان . حرارتهما تلسع ركبتيه ، تنساب بين فخذيه والى أسفل البطن . خـــدر كالرغبة يتسلل الى جسده . اندفاع الهواء في الخارج وهو يجتاح الغسيل المعلق وحواجز البلكونات ، وايريالات التلفزيون له دوي العواصف الثلجية . قطرات المطر تهمس على الشيش .

قالت :

ــ الدفاية ح تعييك .

وكان واضحا ان ذلك لا يهمها في شيء .

يذكره ذلك بالحجرة التي كان ينام فيها بالمدرسة الداخلية .

ها هو يستعيد صورة الاسرة المتجاورة في الظلمة ، وخلفها صف الدواليب الخشبية الزرقاء ، أبوابها مزدحمة بالصور والعبارات البذيئة وتواريخ أيام مضت . يتذكر الوان الملايات البيضاء في الظلمة ، الهمسات المتبادلة بين الاسرة والتلميحات الجنسية . حلكة الليل يتخللها انعكاس الثلج في الخارج .

يتذكر ويتذكـــــر ويتذكر ويلسعه الحنين كالسوط : أغصان

أشجار الصنوبر – سوداء كثيفة – تستقر علـى زجاج الشبابيك يتقمصها نذير غامض ، تلمـع في أطرافها لمسات هشة من الثلج . تشق الظلام في الخارج قطع الثلج وهي تتساقط كسولة،مترددة كأنها أوراق صغيرة ، بيضاء ، تساقطت من شباك في الادوار العليـا . العاصفة الثلجية تزأر عندما تصطدم ببنـاء المدرسة ، تئن بين الاغصان ... وهو في سريره دافيء الجسد . مثلج الانف والاصابع، يرى السماء بيضاء ، بلا نجوم ولا ارتفاع ، يقرأ رواية عن قرية انجليزية : عن البحارة ، والبرد ، والرعب ... أهي جزيرة الكنز ؟ عن ذلك القرصان ذي الساق الواحـدة لونج جون سيلفر ؟ أم كاتريونا ؟ ... لماذا لم يخبره أحد أن تلك سوف تكون أسعد ايام حياته ؟

وهذه الشقة أيضا حلم منتزع من الروايات الفرنسية التي كان يدخن فيها البطل السجاير التركية الفاخرة ، أفلام امريكية عن بيوت خلوية على بحيرات صغيرة ، وعـن نساء فاتنات يهمسن بالحب والمأساة ، وأفلام مصرية ، والكتب السرية التي كانت تتداول بشكل ضيق بين الطلبة ، وأحلام اليقظة ... ان ذلك يعود مخترقا عشرين عاما من خيبة الامل واكتشاف كذب التصورات القديمة ، يعود قافزا فوقها ، يعود كنفي لها ... ومعها يسترجع المعاني القديمة للكلمات: عندما كانت الكلمة قريبة من التحقق ، أو عندما كانت الكلمة ذاتهـا شكلا من الانجاز والفعل ...

تعود للكلمة عطورها الثقيلة النفاذة ، لذعها ، ووعودها ... تعود كما يعود ذلك المذاق القديم للحلوى .

وهذه الشقة الفاخرة ، كما كون صورة عن الشقة الفاخرة ، وكان ذلك يعني :

الهواء الراكد الذي له رائحة النبيذ ، الدفء ودخان السجاير ، عطر المرأة المألوف الغائب المنبيء عن حضور متوقع أو حضور كان في الماضي ، السجادة بألوانها الصارخة المختلطة كأنها حوض ورود،

روائح عتيقة مهجورة كأنها تنبعث مـــن صندوق عطارة ، رائحة الياسمين والفل الذابل ، القرنفل ، والعـــود ، القرفة والبخور ، الشموع المحترقة ، الكركم والعصفر — ... وفي خيـــاله صورة الشقق البائسة التي يعبق جوها برائحة البول والفيتامين ب المركب، والبوتاجاز والطعام .

عندما انفتح باب الشقة أضاءت نجفة صغيرة عنـــد المدخل وأخذت قطعها تصلصل مع تيار الهواء . انطفأت عندما أغلق الباب — هل هي من كريستال حقيقي أم زجاج أم بلاستيك ؟ هذا لا يهم . لانها كانت لامعة ، نظيفة كل قطعة فيها تعكس الضوء نقيا ، ناعما .

ستائر نبيذية من المخمل الثقيل ، وبرته مكتومة اللمعة ، من انفراجة ضيقة تبدو ستارة بيضاء شفافة ، وعلى أطراف الستائر تتدلى حبال مشغولة بالقصب تنتهي بخيوط مذهبة . عـــلى الجدار أطباق نحاسية سوداء عليها رسوم بارزة مـــن النحاس الاحمر : راقصة تمد ساقا الى الامام مستقيمة ، عارية ، داعرة بـــلا اثارة وتقف على ابهام القدم الاخرى المسنون المدبب كأنه رأس أبرة . الملامح والانحناءات محددة بخطوط سوداء من لون أرضية الطبق .. طبق آخر : اخناتون يقف ثابت النظرة ، متصلب القسمات ، قبيحا وعجوزا ، على أهبة البكاء ... وآخر فيـــه فارس من فرسان القرون الوسطى مدجج من قمة رأسه الى أخمص قدميه بالحديد والصفيح الابيض ، له كرش كبير ، وبـــلا رقبة ... بين الطبقين قطعة مستطيلة من القطيفة السوداء مطرزة بورود زاهية الالوان . على الجدار المقابل صورة فوتوغرافية مكبرة لوجه امرأة يحيطهـــا اطار ذو طراز كلاسيكي ، معقد الزخرفة ، رمادي اللون مع لمسات مذهبة . قلم المصور قد صبغ الشفتين والوجنتين بلون أحمر داكن . فوق الباب المؤدي الى الحجرة الاخرى ساعة حائط مستطيلة عقاربها صفراء ، فسفورية ، وأرقامها ذهبية . في المكعب الزجاجي المتصل بالساعة مهرج خشبي ، زنجي بدلا من البندول . يرتدي عمـــامة

بيضاء ، وجبة سوداء لامعة . له شفتان بارزتان للغاية ، حمراوان، وعينان حمراوان تطالعان الحجرة بغضب مدمر . في كل ربع ساعة يقوم بحركة خرقاء بذيئة : يتشقلب ، فتتعلق قدمـــاه الى أعلى ، ورأسه الى أسفل الى أن تنتهي الدقات الثلاث . ثم يمد يديه ويعري عجيزته ويهزها ثلاث مرات .

السجادة من انتاج المانيا الغربية — ولكن هذا لا أهمية له — : دوائر وخطوط منحنية ، توريقات زرقاء على الاطراف . في الوسط دائرة تتزاحم فيها الالوان الصارخة ، تكويناتها تستدير وتتصل بليونة ورفق ، مقرنصات رمادية متداخلة تداخل الارابيسك تحيط بالدائرة .

المصباح الكهربائي ، ملفعا بأباجورة من حرير قرمزي تمـــلأ الحجرة وهجا دافئا . ينفلت من المصباح شعاع مباشر يسطع علـــى فريجيدير عشرة قدم من صنع المصانع الحربية . عندما ينفتح باب الفريجيدير يضيء مصباح مضبب، كأنه فلورسنت، وينكشف الداخل: زجاجات الماء ، مكعبات الثلج ، الجبنة في طبق وملفوفة بغشاء رقيق من النايلون ، أكواب بلاستيك زرقاء فيها جيلي بالفواكه ، زيتون أسود في علبة الفريزر بتلو ريش ، بتلو مشفى ، ضاني ، أفراخ امريكية سمينة وماسخة ... في الادراج السفـــلى خس وجرجير وطماطم وفاصوليا خضراء .

في زاوية الحجرة مائدة طعام عليها طبق فواكه يحتوي عـــلى برتقال وموز وتفاح امريكاني .

ولكن ، أين الاقبية التي يعتق فيها النبيذ والتي تتجول فيهـــا الاشباح ؟ أين تمشي الفئران فـــوق الزجاج المكسور ؟ أين توضع جثث الضحايا ؟ ... غير انه تجاوز عن ذلك ، فهو لم يعد طفلا ، وهو يعلم أن هذه شقة في مدينة القاهرة ، من عمارة طويلة طولا مفرطا .

وهي ، فيفي (فاطمة ، فتحية فريال ... أو ... ؟) ، ترتدي بنطلون هيلانكا أسود ، ضيقا ، وبلوزة صوف زهراء اللون تنتهي لتحيط بالعنق فتكون تناسقا مع حمرة الوجنة ، وتضادا مع حدقة اللون السوداء . الساقان طويلتان ، مرنتان ، قد مدتهما باستقامة وباعدت بينهما ، مثيرة انطباعا بالمرونة والتماسك : الاسترخاء التام مع امكانية الحركة السريعة المباغتة .

بين الساقين كرة صغيرة قد شطرها البنطلون الى نصفين تثير وعودا كثيرة . الانف صغير أشم ، أنيق يستطيع أن يرى ما بداخله: ثقبان أسودان ، والفم كالوردة يستطيع أن يشكل من خطي طاقتي الانف والعينين تعبيرا حانيا . خطوط جسدها تندفع بحدة . عندما تصل الى الخصر فتؤكد وفرة الردفين .

- ٢ -

الليلة الثالثة

أيشرب البراندي ؟ قالت وهي تنظر الى قدميها .

سوف ينزل ليشتري .

لا ، لا داع ، عندها ...

« ولكن معدتي ... » .

لم تلح ، لم تسأل ما شأن معدته .

« معدتي أصلها ... » ويصمت .

« قهوة ؟ » .

تنظر اليه . عيناها مزهرتان ، مشعتان .

قهوة ؟ موافق . طلب اليها الا تتعب نفسها ، سوف يعدها هو . قالت سوف يعدانها سويا . تضحك ، تنطفيء الضحكة . تسبل عينيها . يصبح لوجهها حزن التماثيل الفرعونية التي شاهدها في المتحف المصري .

شبشب بلاستيك رقيق في قدميهـــا تعلوه زهرة بلاستيك بنفسجية . عصر البلاستيك : دمـى بلاستيك ، لوحات بلاستيك ، أطباق بلاستيك ، مفـرش بلاستيك مثبت تحت السجادة ، مكعب بلاستيك لاخفاء عداد النور ، ثريات بلاستيك ، مكعبات بلاستيك ، أرداف بلاستيك، خصر بلاستيك ، ذراعان بلاستيك . راودته رغبة، وهي تسير أمامه مستقيمة ، مسترخية ، أن ينحني ويمد رأسه بين ساقيها ويحملها على كتفيه ، فخذاها يحيطان بعنقه ويتدليان عـلى صدره .

قالت :

— أنت خجول قوي بتتكسف بسرعة .

أطلقت ضحكة مقتضبة .

كأنه لا يعرف ذلك .

فناجين القهوة . بلاستيك ؟ لا ، انهـا من الصيني الممتاز ، ثقيلة ناصعة البياض ، يحيط اعلاها خط ذهبي . أطبـاق القهوة منقوشة بزهور صغيرة زرقاء . القهوة نقيـة قوية ، لاذعة ، تثير الاحماض وتدفعها في لحظات الى المريء . الغازات تتجمع في أسفل البطن ، تضغط على عضلاته (قـرار : سوف أمارس الرياضة) . ينهض مسرعا الى دورة المياه « ع اليمين ... مش كـده ؟ » . السجادة تنزلق تحت قدميه . يفك أزرار البنطلون ويجلس عـلى قاعدة الكابينيه :

« اعتبريني أخ » .

« لا . أنت مش أخ » .

صمت قصير : « أكثر من الاخ » .

وجهها حزين ، حزين ، منسحب وجاد ... بعيد بعيد ...

« طلقات البنادق ، صليل السيوف ... » .

يحس بالراحة . ينهض ، يشد بنطلونه ، يغسل يديه . وجه، وجهه في المرآة ، لا يحب هذا الوجه .

من الراديو ينبعث صوت شادية :

بايديك قوة تهز جبال ...

قال انه يحب شادية ، صوتها يعني ... لم ترد ، بدت كأنها لم تسمع . ثم يكذب ، قال إنه يعرف شادية شخصيا ، ولكنها مستغرقة في شيء ما ، فلا تجيب .

الواقع انه لم يكن يكذب تماما ، فهو يعرف مؤلف اغان ، وعده شخص ما أن يعرفه على ملحن لحن أغاني شادية . ولو كانت فيفي اكثر استعدادا للاصغاء لقال لها ذلك ، ولكنه كان يشعر أن عليه فقط أن يقول لها جملا قصيرة وبسرعة خاطفة .

تتوهج فجأة : نأكل ...

كأنها اكتشفت أمرا غريبا يحدث .

ثم انصرفت .

فكر وهو يجلس وحيدا انها عندما تعرفه على حقيقته لن تكف عن الحديث معه والاستماع اليه . ازدحمت رأسه بمشاريع الحديث المقبل .

من المطبخ ، يأتيه صوت اللحمة وهي تئز بدسمها . على طرابيزة منخفضة أخذت تحشد الاطباق : جبنة بيضاء ، جبنة ترابست ، زيتون أسود ، طماطم على شكل مثلثات ، عسل أبيض ، قشطة ... طبق لحمة محمرة ...

ـ « بتحب الانشوجة ؟ » .

ـ « معدتي ... » .

ـ « ايه معدتك دي ! » .

تندفع ضاحكة بصخب . تبتر الضحكة ، وتندفع بجذعها الى الاما م. تأكل بسرعة ... ليمون شرائح ، عيش فينو .

« جرب الانشوجة وانس معدتك ... » .

— « أصلها ... » .

ولكنها غير مصغية .

بأصابعها الثلاث ، الطويلة ، النحيـــلة تمسك قطعة لحم وتضعها في فمه . تطالعه ، ممتلئة الفم ، وهو يمضغ اللحمة ، يقول: « شكرا » . يفكر : أهذه هي الخطوة الاولى ؟ كيف يستطيع أن يتيقن من ذلك ؟ يعزم أن يضع قطعة لحم في فمها ، ثم يداعب شفتيها بأصابعه . يمد ذراعه على طولها ، سبابته مشيرة الى المهرج ، الذي كان في تلك اللحظة يهز عجيزته ، ويقهقه . تلقي فيفي نظرة جانبية سريعة وتواصل الاكل . يقول مداريا حرجه :

— « غريب » .

تقول بعد قليل :

— « الواحد ما كانشي عارف انه جعان ... » .

تواصل الاكل بسرعة واستغراق . تقول :

— « الواحد ساعات بينسى نفسه . السجاير السبب » .

تنظر اليه :

— «خايفة ابطلها أسمن... صحيح السجاير بتعمل سرطان؟»

يفتح فمه ليتكلم كثيرا ، ليخيفها . تندفع قائلة :

« سرطان ، سرطان ! يعني الواحد عايش مبسوط قوي ! تقدر تقول لي احنا عايشين ليه ؟ » .

يتدفق في الحديث ، يفكر ان هذه هي فرصته : على كل انسان

ان يجيب على هذا السؤال بمفرده ، وأجابته هي حياته .

عندما توقف طنين صوته قالت :

ــ « قلبت دماغي وبرضه ما فهمتش حاجة » .

ــ « ولا أنا » .

يضحك وحده .

تجلس على طرف الكنبة ، ورأسها تستقر على قمة المسند مكونة بجذعها مثلثا مع قاعدة الكنبة والمسند . قدماها ممدودتان في خط واحد مع جسدها . تضع كفيها على بطنها وتقول :

« بص ، بقى لي كرش . كنت جعانة بشكل ... » .

كفاها تنزلقان من على بطنها الى الفخذين . تنفخ بطنها، تنظر اليه بحياد ، وتقول :

ــ « كده أبقى حامل » .

تداعب بطنها .

ــ « فيه ببو صغير ، حلو عفريت هنا » .

ــ « اسمه ايه؟ » .

الطعام أراح معدته ، بعث فيه خدرا . ولكن الضغط مستمر على أسفل البطن . اكتشف أن خيمة صغيرة قد انتصبت بين ساقيه. ارتبك ووضع ساقا فوق ساق ليداريها . رأى انها رأت ذلك . نظر الى الساعة ليجذب انتباهها بعيدا . ولكن ظـــل بسمة تكوّن على شفتيها .

تقول :

ــ « وريني كفك ... لا ... » .

يمد كفه ثم يبعده ، تقول : « الشمال » . تمسك به ، تتأمله ، وجهها حنون ، حزين ، تجذب الكف وتضعه على ركبتها . بأظفــر

السبابة ترسم خطا يتخلل كفه . تقول : « ح تعيش كتيـــر » ترسم دائرة في كفه ، تقول : « باين عليك شقي قوي ... فلوس كثيرة ... فيه سفر ... » .

سعار الرغبة ينبض في رأسه ، يتقلص حلقه ويصبح ابتلاع اللعاب صعبا . الضغط بين ساقيه مؤلما . لم تكـن هي موضوع الرغبة ، كان شبقه دخيلا على تلك اللحظة ، عـــلى ذلك الحلم المتحقق . كان سعاره متجها الى تلك الفتاة البدوية التي لقيها على هضبة غير مطروقة ، قرب بئر ماء . التقت عيونهما وأخذا يتبادلان التحديق . كان خائفا عندما ضمها اليه وبلل شفتيه عرقها ... هذا كل ما حدث،ولكن ملمس جسدها الصلب ظل موضوع رغبة مستمرة، وموضوع حسرة لانه لم يذهب الى أبعد من العناق ...

وكان موضوع رغبته أيضا تلك المرأة النحيلة الساقين تجلس على السرير مباعدة بين ركبتيها وهي تلقم طفلها ثديها الاسمر الرخو، وهي بين الحين والحين تندفع ضاحكة ، بهرج وصخب ... امـــا هذه ... فيفي بتعاليها وتماسكها ، بجمالها النظيف النادر فقد كانت موضوع تعبد .

ما يغريه بها هو وجوه حلقة الاصدقاء، وتأنيبهم ان فشل معها .

تتوقف عن قراءة كفه . تظل ممسكة بها ، ولكن نظرتها تنوه . تختلج عينها اليسرى وهي مستغرقة . انها تبتعد . يود أن يستعيد يده لان هذا الوضع أخذ يرهقه ولكنه لا يجـــرؤ . يفكر أن يعتذر وينصرف . ولكن الى أين ؟ لن يغتفر لنفسه أنه أضاع هذه الفرصة .

تمضي الدقائق تلو الدقائق ، يقوم المهرج المعمم باستعراضه البذيء مرة أخرى ولا شيء يتغير . ما تزال ممسكة بيده، مستغرقة، عينها اليسرى تختلج .

★★★

تنتفض فيفي ، تنظر اليه ،تطالع المكان بعدم تصديق . تحدق في اليد التي تمسكها تنفضها . يقول :

— « كنت سرحانة في أيه ؟ » .

تتمطى وتتثاءب . تبتسم بود ، تسأله :

— « كنت بتقول أيه ؟ » .

يعيد سؤاله . تسترخي على الكنبة محدقة في السقف .

المهرج يعيد استعراضاته مرة أخرى ، وأخرى .

وكانت هي بعيدة ، بعيدة .

★★★

حضور غريب ، مبهم ، مخيف يسيطر على الشقة ، يمنعه من الحركة . يمر وقت طويل .

★★★

تتثاءب تدير جذعها بحركات مستديرة ، تقول محدثة نفسها :

— « ظهري بيئلمني . » .

تتأوه . تقول :

— « دوس على وسطي » .

تمسك بيده وتضعها على منتصف عمودها الفقـري . يحتار ماذا يفعل . تقول بنفاذ صبر : « دوس » . يضغط بقوة ، تقول : « مش كده » . لم يكن متأكدا ولكن يده تصعد الى أعلى ، تلمس الدانتيلا الخشنة للكومبنزايون ، ثم أعلى العمود الفقري وقاعدة الرأس ، ثم تهبط ضاغطة .. ، وخلال ذلك تردد : « أي ، أي ، هنا دوس ... » .

يتلمس الفجوات بين الفقرات ، وهي تقول :

« أيوه هنا بيجيني في الشتا ... رومانزم ... أيوه ، أيوه ، دوس جامد ... تحت شوية .. أيوه .. آه .. فوق شوية .. ».

وخلال ذلك يعاني احساسا مزدوجا : هذا الصعود والهبوط سوف ينقل بعض طبقات القذارة الى يده ، وهذه المتعة التي تتسرب اليه من خلال حركة اليد . ويحاول أن ينقل اليها بحركة اليد : « انني أجن رغبة ولكنني خجول ... أرغب وأرغب وأرغب ... وأحب أن ترغبي في ذلك ... » .

يده تصعد وتهبط وهو ملتاث بالرغبة . قالت :

— « ما تدوسشي جامد ... » .

وكيف نسي ان أكثر ما يثير المرأة هو الحنان ،اللمسة الرقيقة التي تثير الاعصاب المتركزة تحت سطح الجلد مباشرة ... أخذ برؤوس أصابعه فقط ليلمس عمودها الفقري .

يده تصعد وتهبط بتلك اللمسات الرقيقة وهي تطلب منه أن يستمر .

ما حدث بعد ذلك لم يكن بسبب قرار اتخذه ، كان سابقا على أي قرار . ربما كان ذلك بسبب الملل بعد أن استمر هذا الصعود والهبوط طويلا دون أن يؤدي الى شيء ، أو لان الرغبة قد وصلت الى قمة جديدة واتخذت قرارها ...

انسابت أصابعه عبر استيكَ البنطلون . انتظرت قليلا ثم واصلت مسيرتها نحو الخَصر : اصبعان استقرا على عظم الخصر ، وثلاثة غرقت فيَ ليونة هلامية . توقفت اليد ، ثم أخذت تدق ايقاعا يبدأ بالخنصر وينتهي بالابهام : دوَ ، ريَ ، مي ، فا ، صو ... ثم يبدأ مرة أخرى : لا ، سي ، دو ، دو ، ري ... ثم دقت يده ايقاع : العتبة قزازَ والسلم نايلوَ فَ نايلو ... ثم : روق القناني روق ، من ماء المدام واسقيني ... حاولت يده أن تمضي الى أبعد ، ولكنها

توقفت فجأة . توتر غير محسوس انتقل عبر اليد . توقفت يـده وأخذ ينتظر .

كل شيء يتم خارج أصول اللعبة كما تخيلها فما عليه الا أن ينتظر المفاجآت . أجهده الانتظار فأخذ يعيد الايقاع . وفجأة استدار جسدها بقوة ، ودون أن يدري كيف حدث ذلك ، رأى يده مستقرة على ركبته . استطال جذعها فأصبح عموديا ، عنقها شامخ ، معتد. (هذا الجسد الفتي القوي الذي يمارس السباحة وألعـاب القوى والتنس في النادي ... أي ناد ؟ لم تخبره بذلك ، ولكنها في الليلة السابقة أرته مضرب التنس فأمسكه وفكر انه ثقيل) .

أخذت تنظر اليه في عينيها ضحكة ، وحاجباها مقطبان .

قالت :

ــ « كنت بعتبرك زي أخويا » .

كانت تطل عليه من أعلى ، واثقة ، وهو منكمش . أخذت تعبث بسلسلة ذهبية طويلة في نهايتها قلب ذهبي . تصـور انها سوف تهوي بها على وجهه . واكتشف لدهشته ان ذلك التقلص في جانب وجهه المواجه لها ، ذلك الترقب المذعور ، كان انتظارا لمتعة حريفة تبعثها اللطمة ، تنفذ كالسكين الى سويداء تلـك الرغبة ، مثيرة ارتعاشات وارجاعا سوف تستمر حتى يحيطـه النوم كحمام دافيء حنون .

ثم توقف ذلك الترقب وهجمت عليه المهانة سادة كـل سبل التصرف . كان قد أعد نفسه لكي لا يهـان : الابتسامة الخجولة ، الكرم ونكران الذات مع الاصدقاء ، الجهد الخارق ليكتب فنا متميزا ، الانكباب على القراءة ... كان ذلك كله حاجزا يصد الاهانة قبل أن تصل . فلم يتعود على مواجهتها والتصرف حيالها .

قالت :

— « ما كنتش متصورة » .

وكانت تلك جملة مفيدة . إنسابت السخونة صاعدة في عموده الفقري الى سقف رأسه . أشد ما كان يرغب فيه شقته ووحدته . ولكن كل حركة كانت مجازفة أمام تلك الساكنة بغضب ، المشمئزة المتعالية ، المحدقة في الفراغ .

أخذ جسده ينـــز بالعرق وابتلت ملابسه الداخلية . يبهظه احساس بالقذارة وخوف أن يصاب بالبرد . وهي صامتة صمتـا منذرا ، ساقها الموضوعة فوق الاخرى تهتز ، فيصطدم الشبشب البلاستيك بباطن قدمها ، فتصدر طرقات متتالية ، موقعة .

الليل يوغل وهما صامتان .

قالت دون أن تنظر اليه :

— « ولع لي سيجارة » .

تجتاحه حركة نزقة خرقاء . علبة السجاير ليست في الجيوب الخارجية ولا الداخلية ، ليست في جيب البنطلون ولا القميص، وخلال ذلك يكتشف الكثير جدا من علب الكبريت وقطع النقـــود الورقية الصغيرة ، والمفاتيح ، ومنديل متسخ . تحدجه بنظرة رصينـــة ثم تشير الى الطرابيزة الصغيرة دون أن تقول شيئا ، يتزايد ارتباكه ، وتتجول عيناه في كل مكان ... لا يعرف ماذا تريد منه بتلك السبابة الممدودة . يقول :

— « راحت فين ؟ » .

ثم يكتشف علبة السجاير على الطرابيزة حيث تشير .

في نفس اللحظة تقريبا التي تجذب فيهـا نفسا من السيجارة يندفع عمودان من الدخان الازرق الكثيف من منخريها . دقت الساعة دقاتها الثلاث وأخذ المهرج يحرك عجيزته بانتظام : تلقي نظرة جانبية

في اتجاه الساعة ، عيناها كبيرتان ، مستطيلتان ، وتنفجر ضاحكة . قالت :

— « قليل الادب » [*]

اراحه هذا التلميح . كان ذلك خطوة نحو ذوبان ذلك التعالي الجليدي .

وعاد الصمت ثقيلا ، مليئا بالاحتمالات .

بوجه حزين ، تقي ، يعذبه انحطاط الوجود الانساني وييئسه قالت :

« بتشرب معايا قهوة ؟ » .

ومضت متصلبة الجسد محنية الرأس .

★★★

التفتت اليه وقد اكتسى وجهها طابع براءة عابث وقالت :

— « ساكت ليه ؟ » .

— « أبدا » .

قالت :

« أصلك سكت مرة وحده » .

في نبرتها لوم خفي . قالت بقلق :

— « معدتك لسه تعبانة ؟ » .

أمسكت بيده وأخذت تداعبها . كاد يبكي . تتلمس وجهه بأطراف أصابعها وتقول : « لازم تشوف دكتور » .

ينطلق : « أنا متعب يقول ، أبدا ، أبدا ، لا أنال كفايتي من النوم ... الصحيان بدري ... هل تعرف معنى أن لا يستطيع

الانسان النوم قبل الثالثة بعد منتصف الليل ، وأن يصحو في السابعة صباحا ؟ والبرد ... البرد مؤلم وفظيع ، شقته رطبة لا تدخلها الشمس ، والعمل مرهق ، مرهق ، والبرد ... وفي صوته استجداء وبكاء وعيناها حانيتان ، سوداوان ، بلا بياض .

تقترح عليه أن ينام بعد الظهر .

آه ... تلك هي المشكلة ... الناس الذين فوقي يدبون ليل نهار . أنام لثوان قليلة ، ثم يسقط شيء فوق رأسي تماما ، فاستيقظ مشدودا ، ويصبح النوم متعذرا . وأقول لنفسي سوف أضرب ، سوف ... ان أعصابي — الدكتور قال لي أن الاعصاب هي سبب آلام معدتي — ...

تسأله لماذا لا يكلمهم ؟

يقول ، أقول لنفسي ان أنا شاجرتهم فلن أنام على أية حال ، ولكن الاشياء تظل تسقط فوق رأسي تماما ، أثور ، أقرر أن ، أقتل حتى ... ثم أؤجل ذلك ...

تقول انه لا داعي للعنف ، تفاهم معهم !

يقول انه حاول ذلك . في مرة ضربت الجرس فخرجت الي طفلة . كانت تبتسم وقد سقطت بعض أسنانها . أمسكت بيدي وأخذت تشدني الى الداخل . جذبت يدي منها وهربت .

تلقي رأسها على قمة المسند ، عيناها معلقتان بالسقف . ينقطع سيل شكواه . تقول :

— « عايزه يكون ليا طفل » .

فترة صمت يفكر خلالها انها تود أن يكون لها طفل ، ما الذي يمنعها ؟ من تكونين يا فيفي ، وكيف تسكنين في هذه الشقة الفاخرة الواسعة وحدك ؟ أين الاهل والعشاق واصدقاء النادي ؟

يقترب وجه فيفي من وجهه ، يكاد يلامسه . أنفاسها هادئة على وجهه ، لها ملمس . تبتسم فتومض عيناها بضوء ناعم . تقول بصوت خافت ان شفتها هادئة ... بامكانه أن يأتي وينام بعد الظهر ... يتغذيان سويا ، ثم ينام بعد الغداء .

— « ولكن ... » .

— « من غير لكن » .

تضع يدها على فمه وتضيف انها لا تود أن تناقش ذلك .

« خلاص ؟ » قطعة صغيرة جدا من الجبن على شفتها السفلى . يمد يده ليلتقطها ويضعها في فمه . تدرك ما يريد . تضع شفتها بين أسنانها وتختفي قطعة الجبنة الصغيرة .

صوت رذاذ المطر على الشباك ذكرى قديمة : الليالي الممطرة — مطرا حقيقيا ، قال لنفسه — تندفع من الجبال جارفة الصخور والاعشاب والتراب الى الوادي . مسيرة المياه تملأ ليالي القرية دويا . عندما كان صغيرا كان يتخيله حيوانا ضخما تصطك أسنانه .

نسي فيفي . تحرره الذكرى من جو الحرج والاحساس بالمراقبة . يتذكر الايدي القوية وهي تزيح الثلج بالكريك من السطوح ، أيدي النساء الخشنة المحمرة ، ويتذكرها ملفعة بشالها الابيض ممشوقة طويلة تمسك الكريك بيدها ... يتذكرها ، فيمد ساقيه ، ويتمطى ، ويتنفس بعمق . يفاجأ بفيفي ، يلمح نظرة اندهاش في عينيها . تقول :

— « بقيتي كويسه يا بت يا حلوة ؟ » .

جرس صوتها وشى بغضب كامن .

يعود الصمت ، ويوغل الليل ، والمهرج يقوم باستعراضه مرات كثيرة . ثم يقرر أن يحكي حكاية .

قال لنفسه سواء أصغت اليـــه أم لم تصغ فسوف يحكي الحكاية . قال — لاحظ أن صوته نحيل ، صغير — بعد أن انتهى من عمله قالت له احدى زميلاته انها تود أن تحدثه على انفراد . ادرك في تلك اللحظة أن الحكاية التي سوف يحكيها سخيفة ولكنه أصر على مواصلتها . قال انهما تصعلكا في الشوارع ، شربا شايا في الامريكين ... تحدثت عن مشاكل عائلية — اكتشفت أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى . سألها ان كانت متأكدة من ذلك ، فقالت ان دلائل كثيرة تشير الى ذلك . والمهم أن تلك المرأة صديقتها الروح بالروح .

لم يكن بحاجة الى أن يخبره أحد أن الحكاية على هذا النحو لم تكن تستحق أن تحكى .

وجه فيفي هادىء ، غير مكترث ، ولكن صوتها يرتفع خاليا من أي تعبير :

— انت يا ابن الكلب بتعرف كام وحده !

أردفت ذلك بشتيمة بذيئة : طبعا ، ذهبا بعد ذلك الى شقته حتى يزيل توتر أعصابها ؟

نفى ذلك وهو سعيد بهذا الاهتمام . وفي منطقة ما من وعيه يسمع رنين اللهفة الزائفة في صوتها . تتملكه الحيرة : ماذا يفعل وهذا الوجه قريب منه كل هــــذا القرب . تلمس وجهه بأطراف أصابعها ، فمها يستدير ليصبح كالوردة ، تقول انه وجه جميـــل . أحبته من أول نظرة ، تود أن تحتفظ به ألف عام في شقتها ولا تدع عينا أخرى تقع عليه ، تتمنى لو تضعــــه في علبة وتخبئها في جيبها (لاحظ انه لا يوجد جيوب في البنطلون أو البلوزة) ... تثور معدته فيسرع الى الحمام ،معدته تقذف قطع جبنـــة ، خسا وجزرا ... تقذف قطع جبنة وقطع طماطم ، تقذف لحما وجزرا .. .سائلا أخضر شديد الحموضة ، سائلا أصفر شديد المرارة .

وخلال ذلك يتردد تلقائيا في رأسه«أنت مش أخ،أكثر من الاخ . . . مرقده وبكاه ورحم عوده . . . » يغسل فمه ويعود . المرارة في حلقه
مرقده وبكاه ورحم عوده . . . » يغسل فمه ويعود . المرارة في حلقه
« معدتي أصلها . . . » يستقبله المهرج بعينيه الحمراوين .

تمد عنقها ، على وجهها تعبير أمومة ، تقول :

« تعبان ؟ » .

— « أحسن شويه » .

ويعود الصمت .

★★★

فيفي مستغرقة ، ممسكة سيجارة غير مشتعلة ، يحاول أن يشعلها ، ترفض — تغمض عينيها وتدير رأسها يمينا وشمالا .

تسأله وهي بعيدة ، مزدرية :

— « حلوة ؟ » .

يومىء برأسه ايجابا .

تفتت السيجارة بين أصابعها ، ووجهها هادىء ، أصم كقناع . فكر : تضيق العينان ، يثقل التنفس ، تتشنج الاصابع ، يسمون ذلك فقدان السيطرة . وكانت تلك طبيعة ملازمة له ان يضع حركة العالم الخارجي في كلمات .

فجأة بدا له كل شيء مفهوما . آلام معدته تتلاشى ويشعر انه سيد الموقف : لم تكن اللغـــة امينة عندما تحدثت عن الحب والغيرة والجنس . اللغة تحدثت عـــــن شخصيات حية واستجابات حرة والعالم يستجيب بردود فعل ميكانيكية ، منتظرة .

يمسك يدها ، تساعده بأن يمسك بها جيدا ، وتميل بجسدها نحوه . يفقد المؤشر نحو الخطوة التالية . فكر : « بالنسبة لها لا مانع أن نظل هكذا للابـــد . » مؤشرات تظهر وتختفي . عليــه الا يخطىء .

ما الخطوة التالية ؟ التالية ؟

في عينيها نظرة يقظة ولكن محايدة وقال لنفسه أن عليه أن يقوم بكل شيء بنفسه ، لن تمد له يد المساعدة . ما الخطوة التالية؟ ومتى ؟ عندما يثقل تنفسها؟ كان سيد الموقف عندما كانت الاستجابات منتظرة ومحددة ، ولكن الموقف أخذ يتسم بانعدام المنطق والفوضى اللذين في داخله .

ارتفعت يده وأحاطت بكتفيها . ينتظر وهو يلهث . يتجمدان على هذا الوضع. « ألن تقول شيئا؟ ألن تفعل شيئا ؟ » تزحف يده، أصابعه تستقر على النهد ، تغوص فيه ... ثم مـــاذا ؟ ثم ماذا ؟ عليها هي الآن أن تفعل شيئا ... لا . لا . انه هو الرجل . ان نجحت هذه الخطوة فليس هنالك الا تتال ميكانيكي سوف يؤدي الى السرير . ينتظر . الدم يندفع في رأسه ونظره يزوغ . تحاول أن تفلت منه ولكنها تزداد التصاقا ... وبعد ؟ وبعد ؟ وبعد ؟ كيف يتلمس طريقه في هذه الغابة المتشابكة ؟ يقترب بوجهه من وجهها . من هذا القرب تبدو عيناها وكأن بهما حولا ، يبحث عن شفتيها ، يضغط بفمه . وفجأة يختلج فمها وتبتعد بجسدها . كان جسدها كله يرتج بالضحك . طاقتا أنفها ترتعشان ، ويده التي تحيط بكتفيها تهتز مع ايقاع الضحك . تضحك وتضحك ، يتزايد ضحكها حدة ، ويتقلص وجهها كأنها تبكي . الدموع تنساب من عينيها متتالية ، سريعـــة بعضها يتعلق بطرف الانف ، وبالشفة العليا ، شارب من الدموع تكوّن على شفتها العليا . يسقط الدمع عـــلى البنطلون الهيلانكا صغيرا ، مقوسا ، ثم ينبسط ، ويستدير ويتسع ... تضحك وسائل شفاف يلمع داخل طاقتي أنفها . في حلقه طعم القيء ، فكر أن يبصقه

ولكنه يبتلعه ... وهي تضحك ويده ما تزال تحيط بكتفيها وتهتز مع ارتعاش الجسد بالضحك ... تواصل الضحك وقد أصبح ضحكها كدبيب أقدام ثقيلة ، كثيرة تسرع على أرض خشبية. قبضته تتراخى، تسقط ذراعه على مسند الكرسي ، يعيدها الى جواره وهي ما تزال تضحك وتضحك .

ينهض ، يأتيه الدوار يشده الى الكرسي . يتماسك ، يلبس البالطو وعرق غزير يبلله « سوف أصاب بالبرد » . تتعلق به بقوة . وجهها ما يزال غاصا بالضحك . تقول :

« أنا أسفة ، أصلك أنت ... » .

ولكن موجة جديدة من الضحك تقطع كلماتها . يحاول أن يفلت ولكن قبضتها القوية تمنعه من الحركة . يقول بصوت يختلط فيه البكاء :

« أرجوكي سبيني ، ارجوكي ... » .

يجاهد ، ولكنه أسير تلك القبضة القوية، لا يستطيع الافلات.

- ٣ -

فيفي في البار

اقتحم زحام ميدان العتبة . عندما أصبح داخل البار أعشى عينيه الضوء الاصفر الخاثر يتسلل من الكلوبات الكبيرة العمشاء المعلقة على امتداد الحجرة الطويلة . نفذت اليه الروائح الراكدة وأحاطت به — روائح المراحيض العمومية ، روائح السمك المتعطن والكحول والتبغ . أحس بجسده ، عبر ضباب الدخان والروائح كأنه برميل من البلاستيك الطري مملوء حتى حوافيه بسوائل مخاطية صفراء وخضراء تعوم على سطحها قطع صغيرة من الجبنة والجزر والطماطم وعيش الفينو .

كان البار حجرة مستطيلة شديدة الارتفاع ، رصت على امتدادها عشرات ، بل مئات ... الطرابيزات بخطوط متوازية . البارمان يقف خلف دكة بنية ، داكنة . والاصوات مجرد ضجة : جزء من هذا الضباب الاصفر .

أرضية البار قلقة تحت قدميه ، والرواد يظهرون للحظات ثم يغيبهم الضجيج والضباب : « كأس من البراندي سوف يعيد الي

توازني » وسار يصطدم ببائعي السميط ، وماسحي الاحذية ... التقط نظرة الفتاة وهو في حمى الدوار ، والروائح الثقيلة . عينان مصوبتان كأنهما كانتا دائما في انتظاره . النظرة تبدو وتختفي وهو يصعد ويهبط اليها كأنه يقف فوق قارب يسير على ماء مضطرب . ووجهها يقترب حتى يكاد يلمسه بأصابعه ثم يتوه منه . أين رأى صاحبته من قبل ؟ الوجه يقترب يحدق فيه ولكنه يراوغه ويختفي . هاتان العينان يعرفهما ... ولكن أين ومتى ؟ كيف له أن يتذكر مع هذا الدوار ؟ فليجهد نفسه قليلا . خطر له على نحو مبهم أن نظرة التعرف — خليط من الدهشة والابتسام والانتظار — هي التي جعلته يعتقد انه يعرف هذه المرأة . ارتفعت أمام عينيه صورة حجرة من طراز عتيق جدا ، ومريحة جدا — الستائر النبيذية الثقيلة ، الهواء الراكد المحمل بروائح الخشب — وان صاحبة هاتين العينين تنتمي بشكل ما اليها .

أدار عينيه في المكان باحثا عن طرابيزة خالية ولكنها ، بدت له، كلها مشغولة . اتجه الى البار وجلس على أحد الكراسي المرتفعة . طلب كأس براندي دوبل مع الثلج والصودا . وفكر أن البارمان سوف ينتظر منه أن يحدثه عن كرة القدم . ان كرة القدم لا تهمه في شيء .

كانت الفتاة تجلس مع أربعة رجال . لم يستطع أن يتبين ملامحهم بوضوح . رأى ، فقط ، انهم جميعا ذوو بنيان جسدي قوي — أكتاف عريضة ، مربعة ، راسخة .

كان في جلسته يواجه الفتاة . وضع البارمان كأس البراندي وفيه قطع الثلج ، وبجوار الكأس وضع زجاجة الصودا . ثم وضع طبقا صغيرا فيه بعض شرائح الليمون وطبقا آخر فيه حمص مسلوق انتظر أن يأتيه البارمان بطبق جبنة وطماطم فلم يفعل ، فطلب الى بائع السميط أن يعد له طبقا منها . شرب جرعة كبيرة من البراندي وقضم شريحتي ليمون. أحس على التو ان الغشاوة قد زالت من فوق عينيه ، وان جسده قد رسخ وتحدد .

راى أن أحد الجالسين مع الفتاة يشبه شبها غريبا المصري أفندي الذي كان يظهر في صور الكاريكيتير في أواخر الاربعينات . كان غامق السمرة ، مستدير الوجه والانف والنظارة ، وكان فمه غليظ الشفتين ومدورا أيضا . كان وجهه وجه عجوز مبتئسة .

الفتاة ما تزال تحملق فيه ، وان حولت نظرتها عنه فلثوان قليلة تعود بعدها وتركز عينيها في عينيه ، كأنما لو غاب عن نظرها أكثر من ذلك لذاب وتلاشي .

بعد أن شرب الكأس الثاني شعر بالجوع . أتى له البارمان بطبق فيه بيضتان مسلوقتان وآخر فيه بسطرما ، وعيش فينو . مع الطعام ازداد جوعه حدة . نصحه البارمان أن يشتري عصافير مشوية . نادى البائع وطلب منه عشرة عصافير .

نظر الى الفتاة فرآها مستغرقة في الاصغاء لحديث المصري أفندي ، وهي تصوب كتفها في اتجاهه. أحس في وضع كتفها على هذا النحو اهمالا متعمدا له . أحس بالاهانة . قرر أن ينتهي من طعامه بسرعة ويشرب كأس البراندي دفعة واحدة وينصرف على سبيل الاحتجاج . قال لنفسه بعد قليل : « انني اتصرف بشكل مضحك ، فما الذي يبرر مطالبتي اياها أن تظل محدقة بي لما لا نهاية . » ولكنه كان مصمما . ان الرغبة في تعذيب الذات واثارة أحاسيس الندم عند الآخرين كانت تثير في داخله لذة عميقة .

نهضت فجأة فبدا جسدها شامخا ، معتدا . بدت ، وهي تطل على الرواد ، انها تدينهم . سمع صوت البارمان يسأله أن كان يريد كأسا آخر ، فقال :

« دوبل » .

وعندما عاود البحث عنها اكتشف انها اختفت من المكان . هكذا دون اشارة وداع ! أخذ يشعر بالضجر . ود لو أن معه صحيفة يقرأ فيها .

على طرابيزة قرب مدخل البار يجلس شاب نحيل الوجه ، له صلعة تبرق بلمعان آذى عينيه . كان يحـــدث نفسه وسبابته تنذر وتهدد ، ثم أخذ أنفه يرتعش كأنه طفل سوف يشرع في البكاء. التقت عيناه بعيني الشاب فاستدار خجلا ، وواجه البارمان . اكتشف أن الفتاة تقف خلفه تتحدث مع البارمان . ما أن وقع نظره عليها حتى اقتربت منه وقالت :

— « مش فاكرني ؟ » .

فكر انه يذكر هذا الصوت العذب ، يذكره بالتأكيد ، ولكن أين؟ قالت :

— « مش فاكرني برضه ؟ سلوى . سلوى . » .
وابتسمت ابتسامة رائعة .

قال :

— « سلوى ؟ » .

نطق بالاسم كأنه رجل أجنبي ينطق كلمـــــة عربية شديدة الصعوبة .

تملى وجهها . كان وجها جميلا . ثم هاتان العينان الغريبتان . كانتا متسعتين وتبدوان كأنهما عينان صناعيتان . البياض والحدقة العسلية والبؤبؤ الاسود ثلاثة دوائر نقية ومنفصلة . بدتا كعينين في اعلان هائل الحجم تفصل بين دوائره خطوط واضحة ، والبؤبؤ القاتم واسع وصلب . وجهها كان ينضح بالشهوة ولكن التعبير الذي يتكون من علاقة الانف بالفم كان تعبير وداعة وخضوع .

اقتربت منه الفتاة وقالت باستعجال :

— « استناني على موقف الاتوبيس » .
ردت على نظرته المتسائلة :

ـ « وأنت خارج على ايدك اليمين » .

قال :

ـ « دلوقتي ؟ » .

« كمان خمس دقائق » .

قال لها محذرا :

ـ « خمس دقائق » .

طلب كأسا من البراندي وشربه دفعة واحدة . دفع حسابه وخرج . لم ينظر اليها ولكنه كان مطمئنا . عندما فتح الباب الزجاجي هبت في وجهه ريح قوية محملة بالرذاذ ، وفكر انه قد يصاب بالزكام .

في الخارج رأى رجلين يقفان على الرصيف فقدر انهما ينتظران الاوتوبيس . كانا يرتديان معطفين واقيين من المطر وقد رفعا الياقتين فغطتا نصف وجهيهما . سار حتى توقف بالقــرب منهما . انقطع حديثهما والتفت أحدهما اليه بتساؤل . دار بعينيه فلم يجد اللوحة التي تحمل أرقام الاوتوبيسات .

أخذ الرجلان يطالعانه سويا ، ثم انصرفا عنه ، فأحس بالحرج وأخذ ينظر في ساعته . لقد مرت الدقائق الخمس . قال لنفسه : « سوف أصاب بالانفلونزا . هذا مؤكد » . قدماه باردتان وقد راحتا تؤلمانه . تنحنح وسأل الرجلين :

ـ « اتوبيس ايه اللي بيمر من هنا ؟ » .

ضحك أحدهما ، ثم كتم ضحكه . رد الآخر :

ـ « ما فيش اوتوبيسات بتمر من هنا » .

ـ « مش هنا موقف اوتوبيس ؟ » .

قال الرجل بحدة :

ـــ قلت لك ، ما فيش اوتوبيسات بتمر من هنا وبرضه بتقول ده موقف اوتوبيس .

ضحك الآخر وقال :

ـــ « شوف حد غيرنا » .

سار يغلي غضبا . في اتجاه البـــار بحث عنها فلم يجدها في الداخل ، إلتقت عيناه بعيني المصري أفندي . خيل اليه ، دون أن يتأكد ، انه أومأ اليه .

ميدان العتبة بدا مهجورا تحت المطر والريح ، كأنه أرض خلاء، والمصابيح بدت وحيدة ملفعة بالضباب كأنما وجدت هناك لسبب غير مفهوم . بحث عنها في الميدان ، تلفت في كل اتجاه . لم تكن في أي مكان . تأكد لديه انه لن يراها بعد الآن . سار في شارع الازهر . كان معتما وخاليا . جسده ينضح بالعرق وقدماه متثلجتان . خلع البالطو ووضعه على يده وأسرع في السير .

في ميدان الازهر كان باعة البرتقال يقفون أمام عرباتهم وقد وضعوا فوقها كلوبات باهرة الضياء تئز أزيزا متصلا . والبرتقال المبتل بماء المطر كان يلمع بوهج فسفوري . تصور فيفي جالسة الآن مع أصدقائها تحكي لهم ما حدث وتضحك .

دخل مقهى الفيشاوي . الحاج فهمي ، صاحب المقهى ، يشرب الشيشة . ألقى تحية المساء عليه ، فرد دون اكتراث ، لو بحث قليلا فسوف يكتشف أحد معارفه دون شك ثم رآها هناك جالسة في أحد الحجرات الداخلية ، وحيدة ، تنتظر . كانت تتكيء بمرفقيها على الطرابيزة الرخامية وعيناها تطالعانه بحياد وهو يتجه نحوها كانه غادرها منذ قليل ليشتري علبة سجاير ويعود .

وقف أمامها ، فقالت :

ـــ « تأخرت ليه ؟ » .

كان ذلك أشبه بصوت زوجة ملول تأخر زوجها عـن موعد حضوره . قال بغضب :

— « مين قال الموعد هنا ؟ » .

قالت :

— « أنت اللي قلت . في البار » .

غامت المرئيات أمام عينيه واستولى عليـه الدوار . أمسك بالطرابيزة وجلس . قال :

— « أنا ما قلتش الفيشاوي » .

اقترب وجهها من وجهه فعبق الجو برائحة البيرة والسمك . احس كالسائر على أرض زلقة ، شديدة الانحدار . وصوتها يأتيه كأنه صاعد من جب عميق . كانت تقول :

— محمود ؟ الرجل السمين الذي يلبس نظارة طبية والذي كان يجلس بجوارها في البار ؟

قال :

— « أيوه . المصري أفندي » .

واصلت حديثها كأنه لم يقل شيئا : محمود ذلك يحمل مسدسا وهو دائما على استعداد لاستعماله . وسلوى ، يعرف سلوى ؟ حدثتها كثيرا عنه .

فكر : « المصري أفندي بكرشه العظيم يحمل مسدسا وهو على استعداد دائم لاستعماله ؟ شيء لا يصدق » .

أمسكت يده وهي ماضية في حديثها . احس بيدها ساخنة كأنها قطعة من الحديد المحمى . قال لها وهو يجذب يده :

— « حرارتك مرتفعة » لم يبد عليها أنها سمعته ، ومضت كانت تعلم انه سوف يأتي الى ذلك البار في ساعة متأخرة من الليل وقـد

أعد كل شيء ... كفارس سوف يأتي ، يشير اليها بعينيه أن تتبعه، غير مكترث للجالسين معها ولا لرواد البار المندهشين . لقد قال محمود ، اما أن يكون هذا الشاب مجنونا أو أن يكون شجاعا شجاعة جنونية . كيف يدعوها اليه وهو يعلم اننا مسلحون ؟ ولكن الدكتور والآخرين حذروه . قالوا : قد يقتلك ويقتلنا . أصر محمود أن يقتلك في تلك اللحظة ، ولكن الدكتور منعه ، قال له ، انها كانت دائما متأكدة ان ذلك سوف يحدث . سوف يحدث في ساعة متأخرة من الليل لان اعداد البيت والتحضير للحفلة سوف يستغرق طيلة النهار وجزءا من الليل . قالت له انها لهذا السبب تأتي كل ليلة الى ذلك البار وتنتظر ، تنتظره هو .

كان هدوء متحفز يخيم على المقهى وصوتها وحده يدوي . تنبه الى أن هنالك همسا بالقرب منهما ، وعندما التفت رأى الاربعة الذين كانوا يجلسون معها في البار يتحلقون حول طرابيزة قريبة منهما ، صامتين يصغون الى حديثهما ، وأنظارهم متجهة اليهما . تكلم أحدهم بصوت عال ، واضح النبرات ، كأنه يملي الى أحد ما يقول . قال : لو كنا رجالا حقا لذهبنا الى منطقة القنال لنحارب الاسرائيليين بدلا من الجلوس وسرقة زوجات الآخرين .

أحس ان هذا الكلام موجه اليه ، وصوتها يدوي : لقد قالت لهم سوف يأتي ويذلكم ، لم يصدقوا ذلك حتى رأوك ...

قال بصوت مرتفع :

— « انت بتقولي ايه ؟ » .

كان يريد أن يسمعه الآخرون . نهض فنهضت معه وهي ما تزال تواصل حديثها : قالوا كيف سيذلنا ؟ قلت سوف ترون .

السير في الشوارع الخالية ، الخافتة الاضاءة : بين القصرين، أم الغلام . البيوت والمساجد مرتفعة ، سماء سوداء . شبابيك

طويلة وضيقة ، وذات أقواس مكسورة ، شبابيك مربعــة مغلقة بمشربيات ، وأرض الشارع المرصوفة بحجارة محـــدبة ، زلقة ، وأقدامهما تقرع الارض كأنهما خيول كثيرة ، وصدى وقع الاقــدام كنبحة كلب خافتة ، وظهره متصلب بانتظار رصاصة تنفذ فيــه . كانت قد أمسكت بيده ولفتها حول ظهرها وجعلته يمسك ثديها. كان يلهث وهي تقول أن عليهما أن يطفئا هذا الحريق ، وأصوات أقدام تسرع خلفهما وهو عاجزتماما عن التملص من قبضتها القوية . فكر انه سوف يستنجد عندما يشاهد اي تجمع . يبدو انها كانت تدرك ذلك فكانت تقوده في الازقة الخالية .

اصوات الاقدام خلفهما تقترب ، وهي تسرع به ، تكاد تجره خلفها .

توقفت فجأة . كاد أن يسقط لولا انها كانت تمسك به. جذبته اليها وأخذت تقبل فمه بشفتيها الدبقتين الملتهبتين . رائحة البيرة والسمك تفوح من فمها وهي تعتصره. قال لها وهو يلهث انه يختنق. أسرعت به وسط الحواري الضيقة ، والصمت ، وهي تهمس ان لم يكن يحبها أكثر من حياته ، كما تحبه هي ، أكثر من أي شيء في الدنيا فان عليه أن يغادرها حالا ولا يحاول أن يراها مرة أخرى . هــل يحبها كذلك فليقل .

قال :

« أحبك » .

★ ★ ★

خلفا القاهرة وراءهما . حاول أن يتوقف في احــدى حواري الدراسة ليستريح ، قال لها انه سوف يصاب باغماء ، ولكنها كانت ماضية في حديثها ، فلم تسمع ما يقول . قال لنفسه انه كان بامكانه

أن ينجو لو انه قال لها انه لا يحبها ، أو على الاقل انه لا يحبها أكثر من حياته . غير انه كان يعرف الآن انها لن تصغي اليه .

صعدا التلة . لم يعد يشعر بالبرد ، ولكنه منهك الى حد انها كانت تجره جرا . على قمة التلة حاول ان يقاوم ، باعد بين ساقيه وتوقف . احاطته بذراعيها وأخذت تعانقه . شفاهها اللاسعة تنتقل من وجهه الى رقبته الى صدره . ورغم ارهاقه وخوفه استثير وأخذ يبادلها القبلات . وهي خلال ذلك ماضية في اعلان حبها ، تحبه أكثر من حياتها ، لقد أذلهم ...

ثم واصلا السير عبر المقابر .

من بعيد بدت حجرة محاطة بالاشجار . كانت مبنية من حجارة بيضاء ، يمكن رؤيتها بوضوح في الظلمة الرخوة التي خلخلت أضواء القاهرة صلا بتها. بدت الحجرة غارقة في غموض قديم كما تبدو البيوت في ساعة الفجر .

أخذ الطين يلتصق بحذائه ومع مواصلة السير أصبح الحذاء ثقيلا وزلقا . شعر بآلام حادة في سمانتي ساقيه كأن سكاكين تغرس فيهما ، فاستمر يسير بقدمين لا سيطرة له عليهما .

عندما وصلا الى الحجرة اكتشف انها أكبر مما كانت تبدو ، ورأى أن الاشجار لم تكن تحيط بها ، كما تصور ، بل تنمو في حوش داخلي وتلقي بأغصانها من فوق السور .

كان الباب مغلقا فقال :

— « الباب مقفول . احسن نرجع » .

ولكن الباب انفتح بمجرد أن ضغطت عليه بيدها محدثا صريرا حادا . دخلت وأدخلته معها . كانت تعرف طريقها جيدا .

رأى حوشا صغيرا ، محاطا بسور في ارتفاع الحجرة ذاتها . أرضية الحوش مرصوفة بحجارة بيضاء كبيرة . قرب جدار السور استطاع أن يميز بضعة أشجار ، كبيرة الورق ، نحيلة السوق . وفي الوسط شجرة ضخمة ، ترتفع فوق الاشجار الاخرى وتتدلى أغصانها من وراء السور .

دخلت الفتاة الحجرة وتبعها وهـــو ممسك بأعلى ذراعها . كانت الظلمة كثيفة في داخل الحجرة . رأى عينيها تلمعان في الفراغ الداكن بضوء فسفوري . تذكر انه يملك الكثير من علب الكبريت فأخذ يفتش جيوبه . وفجأة سطع ضوء . حجب عينيه ثم تبين أن فيفي تمسك بولاعة رونسون في يدها وتتجه الى الجدار . أشعلت سراجا صغيرا معلقا بمسمار . الحجرة عارية تماما عـــدا لحاف ومرتبة وبطانية تكومت في طرف الحجرة .

عندما ينصت كان يسمع دبيب الخطوات في الخارج . منع نفسه من التفكير في دلالة ذلك . ألقت المرتبة على الارض، وبسطت البطانية فوقها . ثم ألقت عليها باللحاف . رآها تتجه الى الباب ، ثم تخرج منه . بعد قليل سمع صوت المفتاح يدور في الباب الخارجي تولاه الفزع اذ تصور انها أغلقت الباب عليه وانصرفت ، ولكنه رآها تدخل وتجلس على المرتبة . سحبت السوسته ابتداء من العنق وأخذت تشد الفستان الى أسفل . ثم أنزلت حمالتي الكومبنزيون .

قال :

ــ « حاتاخذي برد » .

كان الجزء الاعلى من جسدها قد تعرى وبـــدا ثدياها صلبين ومشرعين وسط صدر عريض وكتفين مدوريين . كان جسدها بنيا ينبىء بالصلابة .

تخلصت الفتاة من ملابسها بحركات تشبه حركـــات لاعب

الجمباز . ثم اجتذب انتباهه انها كانت تنحني بعناية على ساقها اليمنى وأخذت تفك سيرا من الجلد . كانت هناك سيور كثيرة أخذت تفكها واحدا بعد الآخر بصبر وأناة .

انطلقت من الخارج صرخة ، ارتدت كصدى بعد قليل ، ثم امتصتها أصوات صغيرة مبهمة .

كانت الفتاة تجذب ساقها بمجهود شاق ، تبينه من تقلص عضلات الكتف وتجعدات الجبين . حاول أن يفهم ما يحدث ولكنه عجز . وفجأة حدث شيء لا يمكن تخيله . لقد انفصل جزء من الساق بين يدي الفتاة . رآه وهي ممسكة به بين يديها وقد تدلت منه سيور كثيرة ، وتعلقت في نهايته فردة حذاء صفراء . وضعتها بقرب المرتبة على الارض .

ادرك انها ساق صناعية . كانت مغطاة بجلد بني غامق له لمعة كابية . كما استطاع أن يتبين أن الجلد قد تقشر في بعض مواضع ، وخاصة الركبة ، وبدا الجزء المقشور ذا ملمس اسفنجي .

نظر الى الساق فرأى انها مبتورة من فوق الركبة بقليل . أمسكت بيديها الجزء المبتور ورفعته في اتجاه الضوء . رأى أثر الجرح أسمر محمرا وقد تجمع الجلد حوله كما تتجمع طيات منديل بني حول عقدة في وسطه . راحت تضغط على الجرح بأصابعها فقط وتدلكه برفق .

خلال ذلك كله كانت صامتة ، وكانت تلك هي الفترة الوحيدة التي صمتت فيها منذ أن غادرا مقهى الفيشاوي . كان وجهها وهي تداعب الجرح رقيقا ، حانيا كأنه وجه أم .

★★★

كجسد فهد كان جسدها مرنا وعنيفا . وكان طوق النجاة

شعرها الفاحم الطويل . يتعلق به ليتقي تلك الانتفاضات القوية الباغتة . خلال ذلك كان هذيانها يتصل وقد أصبحت كلمات الحب شعرا في فمها . تطلق بين آن وآخر تأوهات اللذة أو تأوهات التحبب والخضوع . أحيانا تصبح شبه نمر ضار تنبعث من فمها صرخات حادة كأنها نداءات الحرب .

جسدها كان كحديد مصهور . وارتعاشاتها القوية أحس أنها قد حطمته تماما واذابته . ويطالع وجهها بخوف ودهشة اذ سرعان ما تتحول قسماته الحساسة النقية الى تشنجات وتوترات ولهاث ينساب على وجهه كالماء المغلي ، بينما كلماتها تسيل دون انقطاع . وتظل عيناها ثابتتين بدوائرهما المحددة تحديدا صارما ، بكثافتهما المصمتة ، والبؤبؤان الواسعان لا يقلصهما انفعال ولا تمددهما دهشة ، ثابتان في كل الاحوال ، عينان من ورق مقوى صقيل واحبار غليظة .

وفي حمى العناق ، وايقاع الجسدين العاريين ، وبينما يداها القويتان تحيطان به كقيد لدن ولكن يستحيل الفكاك منه وجسدها الملتهب القوي بلينه ونعومته ينتفض فيصبح قاطعا ، صلبا كوتر مشدود يمتصه ويغرقه بالعرق أفضت اليه انها أغلقت الباب وانها لن تفتحه أبدا . سوف يصبحان عجوزين وسوف يموتان هنا . انها تعرف كيف تنزع الاحجار التي تسد باب القبر ... عندما يشعران بالنهاية فسيزحفان الى داخل القبر ينتظران النهاية متعانقين يمارسان الجنس .

وتلهث في وجهه ، أتحبني ؟ أكثر من حياتك ، من أي شيء في الوجود ؟

***

كان مستلقيا على ظهره يلف جسده بالبطانية . تنفس الفتاة النائمة بجواره هادىء رقيق . عندما كان يلمسها تندفع نحـوه في نومها وتضع وجهها على كتفه . في أول الامر قرر أن يستغل هذه الفرصة ويبحث عن المفتاح ، ولكنه أحس بالارهاق واليأس يمنعانه من الحركة .

وفي دوامة الارهاق وبينما الكدمات تلسع جسده كأنها جمرات نار أخذ يحلم : سوف تأتي أعياد ومناسبات كثيرة . عندها سيتذكر أهل الميت ميتهم الذي شيدوا له هذه الحجرة الواسعة وسوف تجتمع العائلة أو عائلات كثيرة لزيارة الفقيد ، وعند ذلك سوف يفتحون هذا الباب — لن يعجزهم ذلك — وسوف يخلصونه .

كانت الفتاة قد أخذت تضطرب في نومها وتغمغم بكلام غير واضح ، أسرع تنفسها ، حاولت النهوض وهي تصـدر أصواتـا غريبة ، ثم سكنت .

ومضى يحدث نفسه : « سوف يأتون يوما وأكتافهم العريضة القوية سوف تهوي على الباب وتحطمه تماما ، ولن يعجزهم ذلك » .

أخذت الفتاة تنتحب في نومها . كان بكاؤها أشبه بأمرأة تقسر نفسها لتتظاهر بالبكاء ، تعتصر التنهدات اعتصارا . ومن مكان ما في الخارج انطلقت صرخة خافتة ، قصيرة ، انتهت ، دون صدى . « في أي يوم من الايام نحن ، وفي أي الشهور والسنين ! ومنذ متى تم هذا الزواج ومتى ينتهي ... » وأخذ خدر يزحف اليه جعله في حالة نصف غيبوبة .

ارتفع رأس الفتاة وكتفاها . كان يستطيع أن يرى بريق عينيها وهي تحدق في الظلام . وفجأة أطلقت صرخة حادة وصاحت :

« الثعبان ، الثعبان » .

هب واقفا يبحث بعينيه عن الافعى .

أخذ يبحث عن ملابسه في الظلام . عندما ارتداها غادر الحجرة وتوقف في الحوش . ضوء الفجر يحيل الغيوم السوداء الى كتل من القطن الهش المتسخ ، لمسات برتقالية تلون القطاع الشرقي من السماء . تذكر الصحو مبكرا في المدرسة الداخلية .

في الجو تشيع رائحة التراب المبتل . هدوء وسكينة تحطان على المكان عدا قطرات الماء تتساقط من أوراق الشجر في فترات متباعدة محدثة صوتا أليفا قديما . الاحجار التي رصفت بها أرضية الحوش ذات لون أبيض يخالطه اصفرار خفيف. كانت نظيفة ولامعة فيها فجوات صغيرة قد امتلأت بماء المطر . بين الحجارة كانت نباتات صغيرة للغاية ، ذات زهور بنفسجية ، رقيقة تنبت . تراءت له شوارع كثيرة ، رصفت بمثل الحجارة ، في الكرك ومأدباء والقدس العتيقة ، ودمشق ، وبغداد ، وأخذ يتذكر ويتذكر ، وتذكر المدرسة : السور والشجر والثلج . غاص قلبه وانقبض بالحنين . « لا ينقص هذه اللوحة سوى الطيور » . تذكر الطيور في الفجر ، تذكرها في البرد قادمة من عمق السماء الحمراء الموشاة بالذهب تذكرها وهي تتهاوى من قمة الجبل كقطع حجارة سوداء وتهوي فوق سطوح البيوت . تذكر رائحة الفجر ، روث البقر يتصاعد منه البخار شفافا أزرق ، رائحة الخبز الناضج وهو ينتزع من الفرن ، رائحة الندى الذي يبلل التراب، وجرس الكنيسة يدق دقاته الاولى بطيئة ، متصلة .

أخذ يسير في الحوش . قال لنفسه: « ولكن من تكون سلوى ؟» لقد اعتقد انه اسم الفتاة أول الامر . وواصل السير . فكر انه بامكانه عندما يكون أقل ارهاقا أن يتسلق السور ويقفز من فوقه . ولكن نظرة واحدة الى السور أقنعته باستحالة ذلك .

البرد كسهام صغيرة يخترق قدميه ، ولكن هذا الجو المسحور، المشبع بالذكريات يحتويه داخله ، ويذيبه في رؤى متلاحقة .

ارتفعت أمام عينيه بوضوح فائق صورة بيت ريفي تحيطه الاشجار . ستائر الشباك من قماش أبيض ، قد تخلله في الوسط دانتيلا ذات فتحات واسعة،طرزت فوقه ورود حمراء وخضراء . كان بامكانه أن يرى قلة الماء وراء الستارة ويطل وجه ، شعر كستنائي سقطت منه حلقات كبيرة على الجبين النقي ، وجه ما زال فيه براءة النوم ، عينان عسليتان ناعمتان ما زال الحلم على هدبيهما ، ينسرب في الوجنة السمراء ، في الشفتين المنفرجتين قليلا ، في لمعة الحلق الذهبي الصغير .

حاول جاهدا أن يحتفظ بهذه الصورة ، ولكنها أخذت تذوب وتتحلل حتى انتهت .

عند ذلك فقط شعر بأن أطرافه تتجمد وبأن قدميه أصبحتا كقطعتي زجاج ملصقتين في نهاية ساقيه الطويلتين. عاد الى الحجرة. ضوء الفجر تسلل اليها فأحال المرئيات الى أشباح . توقف قليلا حتى تتعود عيناه الظلام . فيفي نائمة ما تزال ، فمها مفتوح قليلا . خلع حذاءه وجاكتته ، وتمدد بجوارها . تخلل بأصابعه شعرها ثم ضمها اليه حتى تنفذ حرارتها في جسده . أخذ يتأمل وجهها وفكر انه ربما تمر سنين عديدة قبل أن يرى مرة أخرى وجها له مثل هذا الجمال .

— ٤ —

العاشق المهجور

يجلس على الكنبة الاسيوطي وقدماه تستقران على حاجز الشرفة . وهو حزين ، حزين حتى الموت . طيلة النهار لا يفعل شيئا سوى الجلوس هكذا وتدخين السجاير . في فترات متباعدة ينهض ليعد لنفسه فنجانا من القهوة السادة المغلية .

يدق جرس الباب مرات كثيرة ، وأحيانا بنفاذ صبر ، فلا يتحرك من مكانه .

يستطيع من هنا أن يشاهد العمارة التي تسكن فيها حبيبته . بعد جهد استطاع أن يحدد — ما زال غير متأكد تماما — الدور والشقة التي تقطنها . الشيش يكاد يكون مغلقا طيلة الوقت . مرة واحدة رآه يفتح وشاهد شبحها يخطو الى الشرفة ، مرتديا قميص النوم فيناديها دون صوت : « لماذا يا فيفي ، لماذا ، ان الحياة قصيرة وكل لحظة تمر لن تعود ... » .

ردا على ندائه اختفى الشبح وأغلق الشيش .

ما حدث بينهما تحول بفعل الارادة الطيبة وأحلام اليقظة الى

قصة حب والى هجران سعت به قوى غريبة . ومن خلال هـذه الجلسة التي تستمر النهار كله ، وجزءا من الليل ، من خلال حرمان نفسه من الطعام سوى القليل جدا منه ، والدوار ، والوحدة ، يأمل الوصول الى حالة تشتت وهذيان تناسب عاشقا هجرته حبيبته ، صدته عنها بقسوة . ومن هذه الحالة كان ينتظر الشعر أن يأتي . ولكن قواه تخور ، والسأم يميته وهو ما يزال يكابر .

عند غروب الشمس يسقط لون رمادي على المرئيات ، تسيل الاشياء وتفقد تحددها ، الوجوه تكتسب غرابة واخافة . في تلك الساعة تتولاه كآبة ثقيلة كالاختناق ، تنبعث أشواق عنيفة الى أيام لن تعود أبدا ، ويسيطر عليه احساس مرعب بالوحدة . عند ذاك يملؤه يقين قاطع إنه توصل الى ما يجد ويجهد في البحث عنه ... وينتظر ملهوفا ، حابسا أنفاسه أن تتدفق الكلمات دون أن يتحكم فيها تحكي ما حدث بلغة لم تكتب قبل الآن . يتحول الانتظار الى معاناة ، والكلمات تجيء باردة فقيرة ... ولكنه يتذكر :

في هذه الساعة ، في القرية ، السماء عالية ، عالية ، حمراء ، لون رمادي يزحف من الشرق ، كائنات سوداء شفافة تخفق متجهة الى الغروب ، والضوء البلوري الذي يقف متجمدا بانتظار الكارثة . القرويون المجتمعون على طرف الهضبة التي تقوم عليها القرية تنقطع أحاديثهم ، عيونهم تتعلق بالافق ، وملامحهم تفقد تمايزها : وجوه في انتظار الكارثة . في تلك الساعة يأتي الاموات ليزوروا الاهل . أمه، البكاء في وجهها ،تمنعه أن يرمي ماء أو نارا على عتبة الباب فقـد تنزلق أقدام الاحباب أو تلسع — من داخل الطفل تنبثق رغبة لا تقاوم في الالتصاق بالتجمعات الكبيرة . منظر القرويين وهم يتفرقون في تلك الساعة التي تتبدل فيها ملامح الاشياء كان له عنده وقع الكارثة .

ويتذكر القمر ، أحمر ، نحاسيا ، كبيرا وداكن الضوء ، وهو يركب حصانا خلف عمه ليبحثا عن بائع الزيت المقتول . لا يود أن

يتذكر منظر الرجل العاري بفمه المفتوح كأنه يقهقه وعينه اليمنى التي يغطيها دم أسود متجمد . خلال المسيرة كان يتخيل أشكالا سمراء ، نحيلة للغاية وطويلة تنساب على الجبال القريبة .

★★★

الفترة التي يقضيها في السرير بانتظار قدوم النوم اتخذت دورة خاصة، تتكرر كل ليلة، دون أن يشعر بحاجة الى التغيير أو التعديل:

حلم يقظة رقم واحد : فيفي جالسة في صالون شقتها ، بنطلون جينز ازرق ، البلوزة الزهراء ذاتها ، الشبشب نعل رقيق في اعلاه قطيفة سوداء محلاة بكرة من القطن الازرق الفاتح . من الداخل مبطن بفرو أبيض ناصع (ليس شبشب بلاستيك على أية حال) . عيناها صافيتان ، نظيفتان ، بلا مكياج (بلا كحل ، فهو يتذكر باشمئزاز منظر الريميل في عينيها،ومنظرهما بعد أن يزال الكحل.تبدو الجفون رخوة،لها لمعة كلمعة البرص.. عند ذلك تبدو عيناها كعيني لابس النظارات الطبية عندما يخلعونها وترتعش عيونهم بالضوء القوي . وأحيانا أخرى تبدو العينان صفراوين ، ومتورمتين كأنهما متقيحتان) . رأسها منحن قليلا الى الامام (وهو يجاهد أن يبعد ذكرى ذلك السائل الشفاف يبرز ويختفي مع الشهيق والزفير السريعين اللذين يرافقان ضحكها المتشنج) . شفتان لم تصبغا بالروج ، وليست تلك الشفاه البيضاء التي أزيل عنها الروج ، بل شفتان طريتان ورديتان . تتحدث فيفي ، تمر بيدها على يده وتقول انها تحب الشعر الذيينبت على ساعده ... ثم وجهها حزين ، معتذر ، طبقة رقيقة من الدمع تغشي عينيها . يقبلها على خدها المبلل بالدمع ويقول لها انه غفر لها .

تطرق صامتة . (الصمت لا يدوم طويلا ، فهنالك خطر أن يتحول الى كابوس اللامبالاة) . نظرتها مدققة (ولكنها لا تصل الى

حد القسوة) وتقول بجزع أنثوي أصيل أن أحد زراير قميصه قد سقط . تصر رغم احتجاجاته أن تخيط زرارا آخر مكانه .

وهو قد أعد نفسه اعدادا كاملا للموقف :

خلاصة البلادونا المركزة لمنع التقيؤ والتقلصات المعوية ، أقراص لمعادلة الحموضة الزائدة ، بسكوبان عندما تفشل البلادونا وفي حالة الضرورة القصوى ، ريتالين لمعادلة النعاس الذي تحدثه أقراص البلادونا ، فيتامين ب مركب مع المعادن للتقوية ، حقنة فيتامين ج مع الكالسيوم لمقاومة البرد، قطرة انتيسيتن بريفين للعينين والانف لمقاومة الحساسية .

يحكي وهي تصغي بانتباه وفهم (هذا مهم جدا : بانتباه وفهم) ثم ينقطع التيار الكهربائي . يشعل عود كبريت . على ضوئه يبدو وهو يبتسم بثقة يرى وجهها مذعورا . تقول قد تكون غارة جوية ، يقول أبدا . يقف ، تتعلق به : أين تذهب ؟ يقول انه سوف يصلح النور . يسير الى المطبخ ، يكشف الغطاء عن الفيش ، وينتزع احداها ، يركب سلكا بعد أن ينزع السلك المحروق . يتردد قليلا : من أين يأتي بالسلك ؟ ولكنه يتجاوز عن ذلك . يمد يده ، صوتها يرتفع : « حاسب الكهربا » يضحك ويطمئنها . يضع الفيشة فتضيء الصالة .

حلم يقظة رقم اثنين : يجلسان في الصالة . قدماه في طشت ماء فاتر فيه صابون مبشور وفيفي تغسلها — تدعكها برفق — . استرخاء ممتع ينساب في جسده . يمد يده ويداعب شعرها ... تعلن انها تحب قدميه . تنبعث شرارة وصوت انفجار مكتوم . تنطفيء الدفاية ببطء (أنفاسها على وجهه ، في عنقه ، في صدره ، جسدها ملتهب ... ادخلني في قلبك ... أنت فقط ... أنت ... ايقاع جسدها المحموم ، القوي ، المرن) تصيح : « يا خبر ! » . عيناها واسعتان ، لامعتان . يبتسم ويشرح لها : لم يستطع السلك تحمل

ضغط التيار فاحترق جزء منه – والدفاية تواصل الانطفاء كأنها تغمض عينيها – . ينزع فيشة الدفاية ، يفك أجزاءها ، يريها السلك المحترق ، يستبدله بآخر ، يعيد الفيشة فتشتعل الدفاية ببطء . (وهي تلهث ، وتقول لن أدعك تخرج أبدا ، أبدا . هل تحبني أكثر من حياتك ... ؟) . تقول انها سوف تذهب غدا مع صديقتها لتشاهد فيلم (نفوس معقدة) . كل الناس يقولون انه فيلم ممتاز . يأمر ، لا يشرح : فيلم تافه ، الاساس العلمي الذي يقوم عليه خاطىء تماما ... لماذا ؟ يرد على كل الاسئلة بوضوح وحسم . تفهم . تقول لن تذهب .

حلم يقظة رقم ثلاثة : هما في النادي . ارض خلاء ، وعشب . يلعب هو البنج بونج مع فتى رياضي يحظى باعجاب فيفي وجميع فتيات النادي . يبتسم الفتى بثقة ويقوم بالضربة الاولى . يرد هو بضربة سكرو ، يحاول الفتى أن يردها فتطيش . الفتى يفقد اطمئنانه ذلك يعني انه يتوقف عن الابتسام ويعبس – ضربة وذراعه ممتد الى الامام ، تسقط الكرة على الجانب الآخر من الشبكة ، ثم تعود اليه قبل أن يستطيع الآخر أن يردها . الفتى يفقد أعصابه ومعنى ذلك واضح تماما : انه حكم على نفسه بالهزيمة . النتيجة صفر – ٩ انتهت اللعبة ، ١ – ١١ انتهت اللعبة ، ٣ – ٢١ انتهت اللعبة . ضربة الى أقصى الشمال ، يميل الفتى الرياضي بجسده بحركة خطرة فيردها ، ضربة الى أقصى اليمين منه ، الى أقصى الشمال ، الى أقصى اليمين ... يقذف الفتى بالمضرب الى الارض وينصرف غاضبا ... الى أقصى الشمال ، سكرو ، يقذف بالمضرب وينصرف . تضحك مجموعة من الفتيات ، تضحك والدموع تسيل ، تضحك فيفي ... فيفي لا تضحك ... تمسك بيده . يقول لن يعود الى هذا النادي أبدا ، تقول انها ستفعل نفس الشيء . يقول انه لن يضيع وقته مع أغبياء تقول انها لهذا السبب بالذات لن تعود للنادي .

خبطات الكرة في سمعه ، وحركاتها السريعة ، الصاعقة –

شوت — أمام عينيه : تك ، تاك ، تك تاك ... يسري الخدر في جسده ، بداية النوم ، وفي مؤخرة راسه صوت الكرة : تك ، تك تاك ، تك ... في داخله تثور رغبات حريفة ، حادة ، تبدو ممكنة وشبه متحققة في لحظات التردد بين النوم واليقظة : الشوق العنيف حتى البكاء ، حتى الاختناق الى ساق مبتورة تتحرك صعودا وهبوطا بين ساقيه ، صعودا وهبوطا من الركبة حتى نهاية الساق والى جسد مصاب بالحمى والى هذيان الشبق يمضي ويمضي ولا يتوقف . رغبة في أن يحتوى ويذوب .

ينتبه تماما . يقفز من السرير ويرتدي ملابسه . « هل يستطيع أن يعرف الطريق الى تلك الحجرة ؟ الافضل أن يتجه إلى البار أولا» .

خيانة زوجية

— ١ —

يراقب كيف يحدث ذلك : يده وهي تمتد في جيبه وهي تتحسس حلقة المفاتيح تحاول التأكد انها لم تنفك حتى لا تتناثر فوق الارض المظلمة ، ثم ويده تمتد في الظلام نحو ثقب الباب دون أن تخطئه وتدير المفتاح ثم يدفع الباب بكتفه وقد جعلت الرطوبة انفتاحه صعبا ، ويلج الشقة .

قال لنفسه : الروائح المعتادة في ليل الشتاء — وهو يشعر بفرحة الكاتب عندما يلتقط تفصيلا مهملا وشائعا ويضعه في كلمات — لشقة اغلقت فيها الشبابيك المتقابلة التي تولد التيارات الهوائية: رائحة فيتامين ب كومبلكس المنبعثة من البول ، روائح خفيفة من انبوبة البوتاجاز ، عطر خفيف راكد مثير للغثيان (قال لنفسه انني اميز هذه الروائح لانني كاتب ، وانني ربما منحت بعضها صفات من صنع خيالي حتى تصلح للكتابة) .

حجرة النوم كانت مضاءة — في مثل هذه الساعة يجب أن تكون مضاءة ، ويجب أن تكون زوجته أمـام الدولاب الخشبي العريض ممسكة بأحد ملابسها ، وعندما تراه سوف تبـذل مجهودا لتنتزع نفسها من استغراق ما : تنهيدة ضيق واحتجاج .

الخطوات المعتادة نحو حجرة النوم — رآها كما يراها المتفرج

في قاعة العرض ، واعجبه ان الكاتب في داخله يستطيع أن يكون شخصا آخر خارجه وهـــو يمارس ميكانيكية الافعال الصغيرة ــ وخلال ذلك في خياله مجسدا : فوانيس الشوارع المطفأة ، حفرة على الرصيف وكوم تراب ، وملمس اليد . استغل الظلمة وحفر الشارع وأكوام التراب والعربات التي تندفع بصمت في الشوارع الجانبية ليمسك بيدها ويبقيها في يـــــده ، مستمتعا بلدونتها ومرونتها التي تتشكل داخل يده والدفء، المنبعث منها،وهو يفعل بزعم انه أخ أكبر، وانه يرعاها فقط حتى لا تتوه ،وبزعم ...

الستارة المزدوجة التي تفصل بين الصالة والمدخل المؤدي الى حجرة النوم منفرجة قليلا ، ومن خلالها استطاع أن يرى كتف زوجته وقطاعا مثلثا من شعرها . داعبت الستارة وجهه وهو ينفذ من خلالها مستمتعا برطوبتها على وجهه الساخن ، فرحا لان تلك الواقفة لـــم تنتبه الى وجوده بعد . وفي زاوية صغيرة من مخيلته تلوح بحـــدة الاشجار العقيمة العالية تنعكس على السماء السوداء ، ويرى من فرجة متسعة داكنة بعض النجوم ، ويده تمسك بيد الطالبة الصغيرة وهي تتحدث بلا انقطاع وفجأة بدا ذلك مضحكا ــ بدا ذلك باحساسه بحدود جسده ــ ان جسده كبير يملأ المدخـــل ويده تحتوي اليـــد الصغيرة وكان شعوره بعبثية ذلك اشبه بالتيقظ المفاجيء قبـــل الانجراف في خدعة.قال لنفسه . « لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا حدث لي؟ » ولكن هل يستطيع أن ينجو منها ؟ من تلك البراءة والسذاجة في شؤون الحياة التي قد تؤدي به الى مأزق ؟

دخل حجرة النوم ، خبط كعب حذائه بالآخر ورفع يده بالتحية العسكرية وهي أمامه تعطيه ظهرها : جسدها القـــوي الصلب ، عجيزتها المدورة البارزة ــ سمانتا الساقين المنتفختين مثل كرتين ، الكاحلَ النحيلَ ، والخصر البالغ الضمور في منتصف الجسد الفاره ، وشعرها الطويل الناعم ينساب طويلا يغطي أعلى الظهر . ان فوجئت ، فان ذلك لم يبد عليها فلم تستدر اليه ولكنها لوت عنقها ،

وارتفع الكتف الايسر وهبط الايمن قليلا ، العينان فيهما تساؤل ، ثم تتعرفانه وتستوعبانه ، وهو مربوط بهما ، بالدائرة السوداء البراقة الكبيرة وهي تعكس شرارات صغيرة من الضوء ، وجزء منها يختفي في الطرف القريب اليه من العين ، بياضهما ناصع ، مصمت كياقة قميص منشاة ، وطاقة الانف اليمنى المتمددة على الوجنة بسبب التفاتها ، والشفة العليا منفرجة قليلا . العينان تحملان طابع ادانة — ادانة مسبقة : مخطيء ان فعل ، مخطيء ان نوى أن يفعل ، مخطيء ان لم يفعل على الاطلاق ... وقد اتخذ ذلك شكل رثاء للذات .

يمتصه ذلك الحضور المبهم ، المهدد بالخطر ، الصامت ، الراسخ . لم يعد العالم الخارجي : وقائعه ، وروائحه وأشياؤه تتحول في ذهنه الى كلمات : أصبحت مجرد حضور فطري ، عتيق يحاصره ويضغط . وفي خياله صورة عانس صارمة نحيلة ، تلبس نظارات طبية وقبعة سوداء تقف في حوش الكنيسة توجه اليه اتهامها ماذا كنت تفعل في الكهف ؟ ويحاول أن يخفي ثقوب حذائه ويديه المتسختين ... وبعيدا جدا شجرة عالية عقيم ، سوداء تنعكس على المساء التي أضاءها وهج عمارة ، تبدو ذات بعدين فقط ، سلويت أسود .

السرير العريض — الغطاء الازرق ، الوسائد اللينة — وفجأة قصف متواصل بالمدفعية ، طيارة تندفع بضعف سرعة الصوت، ثم يتوقف كل شيء ... الابتسامة تترك جزءا صغيرا من الروج على السنة الامامية ، مختلطا بلعاب لامع ، وتشد الانف الصغير على الجانبين ، وتحاصر العينين . تختفي الخطوط الدقيقة على جانبي الفم ، والانحدار العامودي بين الحاجبين ... تقول :

— كنتي فين يا بنت صايعة ؟

وهو ما يزال يلقي تحيته العسكرية بجسد متصلب .

— ٢ —

فنجان القهوة اللاذع المذاق ، سكر قليـــل ، وحبة الهال وهو يمضغها ببطء ، ينساب طعمها النفاذ الى الانف ، حـــادا كالفودكا القوية . يحس بالجرعة تنساب ببطء ، يحس مسارها في البلعوم ، ثم وهي تستقر ساخنة ، دسمة ، حريفة في المعدة . ويرقب ذلـــك الدفء وهو ينساب الى الاحشاء ، مداعبا برقة الخاصِرتين . يراقب ذلك باستسلام كأن يدا تداعبه ، ترتد الموجة عائدة ، متصاعدة حاملة معها الشبق عندما يصبح هو العلاقة الوحيدة بالعالم ، الشبق الذي جعل حبات الرمان اثداء ، والفم وردة ، والشعر ليلا وغابات ترعى فيها النمور ، والبطن بحورا غريقة ، والصرة مركبا ، شبقا يبحث عن موضوع — يستبعد الزوجة .

بعد هذا الشرود المؤقت تأتي الكلمات والصور وينبثق معهما احساس قديم وحنين الى البيت الكبير القابع الذي يحتمي من شمس الظهيرة بقمة الجبل . الكلمات تتوالى ، يمسك بعضها ويفلت منه البعض الآخر . ويبحث عن الكلمات الضائعة ، يبحث بشد شعره وجذب أنفاس سيجارته ، كريشندو من اللهفة يبحث عـــن قمة . يمسك بها ، يسجلها قبل أن تفلت بفرحة كقمة النشوة ، ثم يضـــع القلم ويسترخي .

تمتد يده الى فنجان القهوة ويترقب تلك الاثارة ، ذلك الشبق وهو يزحف في احشائه ، تتدافع كلمات ، وصور ، صور كثيرة تبحث عن كلمات ، وينتظر الى أن ينتهي ذلك التزاحم الفظ حتى يقتصر ، يختزل نفسه بكلمات وصورة محددة . وخلال الانتظار ومختلطـــا بالصور والكلمات يأتي الرعب متقمصا طابع الحس السليم والذوق السائد ، ساخرا من كل خروج على المألوف ... يحس به واقفـــا وراءه تماما وقد ينقض عليه في أية لحظة ، واقفا وراء الباب — رجال مسلحون أيديهم على الجرس وقد يضغطونه في أية لحظة ، يخرج

اليهم فيشهرون مسدساتهم في وجهه ... عوانس في حوش الكنيسة يردد « ابتسمت وقالت » « ابتسمت وقالت » والرعب يمد قدما ويوقف الكلمة . يضع القلم ويشعل سيجارة . يبحث في الدرج عن اسبيرين يقلب الاوراق ، يرفع حزمة من الرسائل ، يكتشف قصة اعتقد انه فقدها فيضعها على طرف المكتب ، يبحث باستغراق ، ثم تأتي الجملة كاملة ، وافية بما يريد ، جاءت دون أن يفكر فيها — عندما نسي انه يبحث عنها .

الرغبة ترتفع من جديد ، بوق عربة على شكل نغمات بيانو — عليه أن يجد لذلك مكانا فيما يكتب — وهو مستكن ، مستسلم لموجتها الصاعدة : كلمات تبرق وتنطفيء ، تعبير وجه — من هي صاحبته ... من ... من ؟ — يتزايد طوفان الكلمات ، ولكنها قاصرة ... يرغب رغبة عنيفة في أن يسيطر على الكلمات ، ولكنها تأتي وتذهب عندما يمسك القلم يفقد السيطرة ، والرعب يتمثل في ذلك الاندفاع الاهوج الذي لا يستطيع التحكم فيه.. شيء يتحفز للانطلاق والرعب والخجل من عين ترقبه من ثقب الباب — يحجزانه .

يعيد قراءة ما كتب ، ولكنه لا يستطيع الحكم عليه ... يود أن يعرف فقط هل أفلت الخيط منه ؟ هل كتب شيئا — يخجل منه ؟ ثم فجأة ... عليه أن يقتنص ذلك قبل أن يضيع وتسرع يده في الكتابة — عليه أن يسجله الآن ثم سوف يعيد كتابته فيما بعد — والرغبة تعلو في هذه المرة ، تصعد بعنف الى القمة ، تنتقل بعدها الى قمة جديدة ، لايتوقف عندها ولكنه يوالي الصعود « المهم أن أسجل ذلك وسوف أعيد كتابته فيما بعد » ، انها النشوة المطلقة انه يواصل ، يده تؤلمه ولكن لا شيء يستطيع ايقافه ، ومن بعيد يلوح ما يرغب في التعبير عنه مبهما ولكنه سوف يتضح بمجرد الوصول اليه وهو يشق طريقه ... ثم فجأة تتوقف يده عن الكتابة في منتصف جملة لم يتمها . أمسك بفنجان القهوة ، لم يجد فيه شيئا وضعه على فمه أملا أن تنساب منه قطرة الى فمه . أشعل سيجارة وهو يتأهب

لمواصلة الكتابة . كانت يده ترتعش بالمجهود الذي بذله ... ولكنه احس في داخله بفراغ ، وبأنه عاجز عن الحركة .

انه يعلم ان لا فائدة ، لن يستطيع مواصلة الكتابة . فكر أن يتم الجملة التي بدأها على الاقل ، ولكن مجرد الامساك بالقلم ووضعه على الورق أثار غثيانا في داخله ... غادر المكتب وتمدد على الكنبة. لم يكن يرغب في شيء . فكر أن يرتدي ملابسه ويتمشى في الشارع ولكن كل رغبة ماتت ... فكر أن يتناول بعض الاقراص المنبهة ولكنه استمر في استرخائه مجهدا وخائفا .

وكلدغة العقرب فاجأه الاحساس بالذنب يزيده حدة خوف مبهم : لقد أهمل زوجته طويلا ولا بد انها غاضبة . كان غضبها البارد في داخله طيلة الوقت .

كانت زوجته تجلس على الكرسي الكبير قرب السرير، تمسك بملقاط صغير وتنزع الشعر من حاجبيها مخلفا بقعا حمراء ملتهبة . شعرها المغسول ملفوف بفوطة على شكل عمم المهراجات الهنود مما يجعل وجهها يبدو مكتنزا . فستانها الازرق القصير المصنوع من التيل الخشن الملمس ينحسر عن فخذين كبيرين ، زاد عرضهما بسبب ضغطهما على الكرسي . من بعيد تبدو بشرة الساق لامعة نقية ... عليه أن يقترب حتى يلاحظ الثقوب المسودة القاع التي خلفها الشعر المنتزع . كانت مستغرقة تحدق في مرآة صغيرة مدورة ، ذات اطار وظهر معدنيين مطليين بالفضة التي انسلخت في بعض المواضيع وبدت خلفها مساحات مسودة . واصلت زينتها دون أن تشعره انها احست به .

على يمين الكرسي طرابيزة صغيرة من طراز عربي عليها مفرش اخضر باهت في وسطه وردة حمراء مطرزة ذات ساق معوج ، وفوقه طبق بلاستيك أخضر به فول سوداني مقشر ولب وعدد كبير من مشابك الشعر .

ــ ازاي سيادة عظمتكم ؟

أدرك انه فشل في تضمين عبارته طابع التهريج الذي أراده . ألقت عليه نظرة جانبية سريعة والملقاط على حاجبها ثم عادت تنظر الى المرآة وقد تكون المنخفض العامودي بين حاجبيها ، غائرا كجرح قديم . أخفضت المرآة قليلا كشفت عن أسنانها ، وقد تقلصت شفتها العليا فبدا أنفها أكبر من المعتاد ألقت برأسها الى الخلف وقد أخذت أسنانها تلمع ، ثم تناولت أبرة مشبوكة في مفرش الطرابيزه وخيط أسود ما زال معلقا بها وأخذت تنكش بها أسنانها ، ثم عادت تتأمل أسنانها في المرآة . مسحت رأس الابرة بفستانها ، وأعادت شبكها بمفرش الطرابيزه ... مرت بخنصرها على شفتها السفلى ، توقفت عند قشرة بارزة وعالجتها بأظفرها الطويل المدبب .

كان اللسان الذي لعقت به شفتها يحمل على سطحه قطعا صغيرة من الفول السوداني. استمرت تداعب بطرفه شفتها السفلى مدة طويلة وقد أرخت جفنها الاعلى فبدت عينها المغمضة بخط الكحل فوق رمشها كحدقة بيضاء تستقر بين خط الرمش المكحول والحاجب. ابتلعت لسانها فجأة ، ويبدو انها اكتشفت قطع الفول السوداني فأخذت تمضغها وحنجرتها خلال ذلك ترتفع وتنخفض .

على الجدار نسخة عن احدى لوحات مودلياني : وجه طويل مائل الى اليسار ، ومرخي الجفنين كأنه نائم ، ذو ذقن عريضة كانها نصف دائرة مسحوبة قليلا من منتصفها الى أسفل . يستقر الوجه على عنق طويلة طولا مفرطا ، وخطر له انه يشبه خروفا يعد نفسه للذبح ــ يدعو السكين ... لا ، لا ... يعلم ان السكين تقترب فلا يقاوم . نسخة اخرى عن لوحة لبيكاسو ، لهرج تكثر فيها الالوان الحمراء . قال لنفسه « بيكاسو يشبه شتاينبك » ولم يدر كيف .

وضعت زوجته المرآة تحت أنفها ، أخفضتها قليلا وأرجعت رأسها الى الوراء قليلا حتى تستطيع أن ترى داخله اختفت حدقتها

تحت جفنها الاسفل عدا جزء صغير فبدت عيناها واسعتين ومخيفتين مدت الملقاط بحرص داخل أحد فتحتي الانف ثم جذبته بحركة سريعة وهو يحمل شعرة طويلة سوداء . إقترب الحاجبان بسرعة خاطفة وسرت في الجبين النقي رعشة .

كان يعرف تماما ماذا عليه أن يفعل حتى يحطم حاجز الصدود والغضب : أن يمثل دور العاشق المهتاج الـــذي ينهي عناقه بأن يقودها الى السرير ، ولكن مجرد التفكير في ذلك الآن يثير اشمئزازه وهو يعرف انها خلال ذلك سوف تتمنع وتحتج طالبة أن يجيب على أسئلتها . أولا : أيحبها حقا ؟ ومن تلك التي كلمته بالتلفون قبل ثلاثة أيام ؟ ولماذا يقضي وقته في الحجرة الاخرى ؟ يعمل ؟ لقد كان دائما يعمل ولكن لم يكن يستغرق هذا الوقت كله ؟... وتمضي مستمتعة بتأكيداته ، طالبة المزيد منها ، طالبة يقينا لن تناله لانها تعلم انـــه يجاملها فقط .

ولكنه عاجز عن ذلك الآن ، عاجز تماما ، وفي معركة الصمت والصدود تكون دائما هي الاقوى .

قال :

— مين السبب في الحب القلب والا العين؟حاولي تكوني موضوعية ! وضعت المرآة والملقاط في الشق الفاصل بين وركيها وقالت : ما دام ما بنعرفش نكلم بعض نسكت أحسن .

فكر ان وضع المرآة والملقاط بين الساقين يعني انها سوف تعود الى زينتها، (لو كانت قد قررت التوقف لوضعتهما على الطرابيزه مطلقة تنهيدة عميقة ، ثم تلقي رأسها على مسند الكرسي ، ناظرة اليـــه) .

قال : ما أنا بتكلم أهه !

وضحك . أمسكت بالمرآة والملقاط ثم أخذت تفرك بسبابتها

منطقة على جانب أنفها ، ثم قالت وهي تنظر في المرآة كأنها تكلمها بذلك الصوت الخفيض ، الشاكي ، القاطع ، المترفع كانه شخص آخر الذي تتحدث عنه وليس هو ، وهي ما تزال تفرك وجهها :

ــ أنا مش عارفة ايه يخلينا نعيش مع بعض !

ــ ٣ ــ

شم رائحة البوتاجاز للحظة ، ثم قال لنفسه انها خداع وهو يشم الآن رائحة المرأة ، عطور مستخفية . وجو الحجرة أنيس ، محايد بود خاصة بعد أن أشعلت الدفاية فزال التثلج الذي في قدميه، وشاع دفء .

كان يحاول ترجمة المقال جملة ، جملة ، تقرأ الجملة معه وعندما ينطق بالكلمات تكتبها بعد أن تعدل فيها وهي تنظر اليه متسائلة ان كان يعترض على التعديل . أحب هذه الثقة الهادئة لانه يشعر دائما باحترام للمهارة النسائية .

وضعت القلم واعتدلت فبرز ثدياها . قالت بذلك الهدوء اليقظ: نشرب قهوة .

وتحت ذلك كله ، بشكل غير محسوس ، يسري تيار مرح .

رآها في احتفال بمناسبة ما . كان يقف وحده ، وزوجته مستغرقة في نقاش مع مجموعة قرب الشباك. في مثل هذه المناسبات تنساه تماما وتستغرق في الحديث بحماس تفتقد فيه دائما حس الفكاهة . وكانت نادية ضمن الجالسات اللاتي تفحصهن . لم يتوقف نظره عندها فلم يكن فيها شيء يفرض نفسه . غير انه وهو ينصرف عنهن أحس بتلك اللذعة التي ترافق صدمة الاكتشاف . واحدة من الجالسات انطبعت صورتها في مخيلته ، وبعد فترة وجيزة جاء رد

الفعل حادا ينبىء أن ما يريده أصبح مستحيلا ، يرافق ذلك احساس بأنه حتى لو تحقق كل شيء فسوف يظل ذلك دون رغبته ، سوف يحيلها الى مجرد شعور بالاشمئزاز والخوف .

وتولته رغبة بالهرب واحساس بالمرارة لان كل ما هو جميل محرم . ثم قال لنفسه : سوف تخيب ظني ، كلهن يخيبن الظن، وهو يطالع زوجته التي احتقن وجهها وهي تتكلم بحماس واندفاع . لو تأملت تلك المرأة جيدا فسوف تخيب ظني ، قـال لنفسه ، وأحس بالراحـــة .

وعاد يبحث عنها بعينيه . ليست هذه ، ولا هذه ، ... وشيء يشبه الفرحة ينبعث في قلبه : لقد كانت مجرد وهم ... ولا هـذه ... ها هي ! سمة من السكون والاستغراق يحيطانها . شعرها بلون العسل يحيط بوجهها ويعطي احساسا بالنعومة والهشاشة يكاد يشعر بملمسه في يديه .

وادرك انه يواجه تلك الظاهرة النادرة ، ان العين كلما أطالت التأمل بدا كل شيء فيها متقنا وجميلا . كانت نبضات قلبه تؤلمه وهو يطالع ذلك الوجه اليقظ ، المنطوي في الوقت ذاته .

وهو يعرف هذا النوع من النساء الذي يحيط نفسه بسياج من العزلة وعندما يجهد الآخرون في دخول عالمه فانه يتظاهر بأنـه لا يلاحظ ذلك وينهي كل محادثة أو غزل بأدب شديد مقترنا دائما بود مربك ، ثم تهرب الى عالمها . لا شيء يغري هذا النوع من النساء لانه لا يرغب في شيء لا يملكه ولا يفتقد ما لا يملك .

واكتشف فيما بعد خطأه في الحكم عليها . كان ذلك الاكتفاء ولم تعد كلمات الاطراء تهمها لان تعلم تماما قيمة فنها .

عادت تحمل صينية القهوة بتوازن الرياضي . وهي وان كانت

— في انحناءة الرأس ، في تحفز الكتفين ، في النظرة الساهمة اليقظة مع ذلك — تحمل تعبير استغراق فليس ذلك خوفا أن تفقد الصينية توازنها ، بل هي نتيجة مراقبة انفعالات في داخلها تبحث عن شكل .

من شق الفستان ، يبدو نحرها وأعلى ثدييها منضغطين تحت ياقة الفستان ، صلبين .

— عملتها ع الريحة ، مش عايزها ع الريحة ؟

قال ان ذلك ما يريده فعلا وانصرفت الى سكب القهوة . ومع رائحة القهوة هفت رائحة جسدها . « قهوة مدهشة » وكلماته تحمل الرغبة المستحيلة ، فازداد تحفز الكتفين والتهبت الوجنتان . رشف من فنجانه وقال : « نكمل » لانه يشعر أن وجوده معها يجب أن يكون مبررا بالعمل وانه لو استرخى لحظة واحدة لكان عليه أن ينصرف .

قالت : نستريح شويه .

عندما انتهت الحفلة في تلك الليلة قال لنفسه انها مجاملة . لقد جعلت كل شيء مسموحا به : الحديث ورقم التلفون وعنوان البيت . صحيح أن ردودها كانت أشبه بردود موظفة استعلامات لبقة تنتظر بعد كل سؤال أن ينتهي الحديث وتنصرف بعد ذلك الى مشاغلها وهي تدرك — وتتجاهل ذلك في الوقت ذاته — ان ما يراد منها ليس هذه الاسئلة ولكن قيام علاقة لا محل لها في حياتها . غير أن الحديث طال وعندما شعر انه أثقل عليها قالت انها تنتظر مكالمته غدا في الواحدة .

في الشارع وهما ينتظران التاكسي ، كانت زوجته صامتة . الخط العامودي بين الحاجبين عميق الغور ، وأنفها الصغير الحاد منتفخ . كانت غاضبة ذلك الغضب الذي تثيره أخطاء الآخرين ، الغضب الصالح ، التقي الذي يصدر عن الدعاة المخلصين — وهو يعلم انه ان لم يشاركها غضبها وعلى نفس المستوى فسيتوجه هذا الغضب نحــــوه .

كلمها برقـــة مبعثها الشعور بالذنب لان نادية هي التي تملأ خياله : نتمشى شويه لغاية ما نلاقي تاكسي .

لم ترد ، وظلت بجسدها المربع وساقيها القصيرتين المتباعدتين واقفة في مكانها . أتى تاكسي من بعيد ، خال ومضاء من الداخل . رفعت ذراعهـــا العارية بتحيـــة هتلرية ، ولكـــن امرأة ورجـــلا برزا من تحت الشجرة التي يسقط عليها ضوء فانوس مباشرة فأوقفا التاكسي وركبا .

وظلت زوجته رافعة يدها حتى تخطاهما التاكسي ، ثم قالت بصوت أغلظه التوتر :

— البيت قريب ، خلينا نمشي .

وانطلقت مسرعة دون أن تنتظر موافقته ، جـذعها وساقها مندفعان الى الامام . كانت متقدمة ، حاول أن يلحق بها فلم يستطع وهو يعلم أن سرعتها سوف تزداد لو دعاها للتمهل في سيرها . عندما دخل باب العمارة رآها واقفة أمام باب المصعد تضغط على زره ضغطات عصبية متوالية ، وهي تلهث . لم تلتفت اليه عندما دخل العمارة .

انفتح باب المصعد الاتوماتيكي فأخذ يرتج باندفاعتها ، ثم اتكأت بظهرها على المرآة وهي تلقي بنظرة سوداء مضببة ، منذرة . مد يده الى لوحة الازرار وقال :

— دور كام يا مدام ؟

أحنت جذعها بعنف ، وتدلى ثدياها الرائعان وضغطت على زر الدور السادس . في حجرة النوم كان وجهها مشتعلا بالانفعال والقليل من البراندي الذي شربته — الخمر تجعلها عصبية — . أخذت تلقي بملابسها بلا نظام على السرير والكنبة والارض . ثم انطلق زعيقها :

— فك الزراير حاتختنق .

وذلك انها خلعت بلوزتها دون أن تفك أزرارها فأخذت تشدها على عنقها ولم تتمكن من تخليصها . بقميص النوم الذي يرتفع عن الركبة قليلا ، وهي تقف أمام الدولاب ، قالت يقال أن المرأة الشرقية لا يمكن أن تكون مساوية للرجل ، شوف السخافة ، قال خلي ست تدخل سباق في حمل الاثقال مع راجل ، مين اللي راح يسبق ؟

وتصور المجموعة وهي تحيط بها كاتمة ضحكاتها ، وزوجته ماضية في نقاشها الصاخب المتشنج .

لم يكن مستعدا أن يشاركها حماسها فقال :

ـ حاجة سخيفة فعلا .

فانفجرت : فاكرني عيلة صغيرة !

احتمى بالحمام ، وعندما عاد بعد بضع دقائق كانت كما ينتظر مستغرقة في النوم .

قالت له نادية : مالك قلق ؟

ـ قلق ! ابدا .

ابتسمت : دائما قلق ومتوتر .

انفلت عقال لسانه ولم يعد يستطيع أن يرد بأجوبة مختصرة . تولته رغبة لا تقاوم في الشرح والتبرير . انه يشعر دائما انه يفرض نفسه عليها ، كما انه يخاف ... يخاف عليها . امرأة تسكن وحدها .

قالت : أنت بتحس انك بتفرض نفسك عليا ؟

قال انــــه بصراحة عاجز عن التمييز بين الرغبـــة الحقيقية والمجاملة . حنت رأسها ورشفت من فنجان القهوة . خطر له أن زوجته تفعل عكس ذلك اذ ترفع فنجان القهوة بعد أن تدفع رأسها الى الخلف قليلا .

لو لم تتكلم في تلك اللحظة لتكلم هو . قالت عندما تقتنع بشيء

فلا يهمها رأي الآخرين،كما أن لا أحد يستطيع أن يفرض نفسه عليها.

قالت ذلك بحسم . قال لها وهــو مندهش دهشة حقيقية : أيستطيع أن يثق انها لا تضجر من زياراته ؟

ابتسمت وقالت كن على ثقة .

كان يعتقد انه يثير الضجر عند الآخرين وعندما يسمع عكس ذلك كان يدهش ويسترجع في ذهنه الاحاديث التي دارت بينه وبينهم.

— ٤ —

خارج العمارة لفحه الهواء البارد . توقف في وسط المسافة الى الرصيف الآخر عندما إقتربت عربة مسرعة . وفي تلك اللحظة تذكر انه نسي حقيبته الجلدية فعاد . تسلق درجات السلم قفزا وضرب الجرس ضربة خفيفة .

في هذا الوقت المتأخر انتظر ان تفتح الشراعة لتتحقق من الزائر ولكنها فتحت الباب وبدت في وجهها الفرحة . قالت :

— كويس اللي جيت .

— نسيت الشنطة .

قطبت وجهها الذي ما زال يضحك : كسفتني . طيب . اقعد شويه . دخل ، وجلسا وأقدامهم تكاد تتلامس . وهي ملء عينيه : بشرتها السمراء النقية بلون النبيذ ، والعينين اللامعتين ، والفم المكتنز وشعرها الناعم الهش بلون العسل والذي يبدو كدخان بخور. وذلك الوجد الذي لن يطفئه شيء ، فلو عانقها أو حتى التهمها فسوف يظل أشد جوعا وشوقا . كان في وجده يعايش نتيجة كل فعل : الاحباط ثم الوجد من جديد فلا فعل يرتفع الى مستوى هذا الوجد واللهفة .

ولذا استبعد كل شيء مستبدلا ذلك كله بالشوق الــى شرح عذابــه .

قالت : بتشرب براندي ؟

كان يدرك انه لو رفض فلن تصر ، ولكن موافقته سوف تسعدها . لكن شيئا ما فيها تغير وهي تقول عبارتها وقد ارتسم على وجهها تعبير شقاوة ، وهي جالسة والفستان ينحسر عن ركبتيها اللامعتين في ضوء النجفة ، وهي تنهض وثدياها يضغطان على البلوزة فتتحدد معالمهما ، وهي تضع الكؤوس على الطرابيزه .

شرب كأسه دفعة واحدة وقال : في صحتك .

رشفت رشفة صغيرة وقالت :

— ما أقدرش أشربه مرة واحدة .

قال لنفسه ان كل شيء يتم بشروطها ، حسب عمليات ومنطق يصعب التكهن به وهو غير قادر على تحديه أو تغييره . ولكن خضوعا ما ، ضعفا ما لم يستطع تحديده ، ربما أنوثة تعودها واعتقد دائما انها مصنوعة عند الآخريات قد طرأت .

كان وجهها عابسا بسبب طعم البراندي . قال :

— خذي حتة جبنه بعد ما تشربي ، مش ح تشعري بطعم البراندي . أشعل سيجارة وقدمها لها فتناولتها وهي مندهشة خجلة وأخذت تملأ فمها بالدخان ثم تخرجه . ضحك عندما تكونت الدموع في عينيها وقد أخذت تكح . ثم شاركته ضحكه .

قال لها : كلميني عن نفسك .

نظرت اليه مستطلعة والضحك والدموع ما يزالان في عينيها ، فقال ان أحدنا يكاد لا يعرف شيئا عن الآخر . ردت :

— دا نمط بدائي للمعرفة ، انه كل واحد يكلم التاني عن حياته الخاصة . وأنا يكاد لا يكون لي حياة خاصة .

كانت تلك أطول جملة سمعها تقولها وكانت مختلفة عن طابع

حديثها . حاول أن يطرد البسمة المنكسرة التي يعلم انها انطبعت على وجهه، وأدركانها استعادت الامساك بزمام الموقف الذي تنازلت عنه فترة قصيرة .

قال : ما بتفكريش في المستقبل ؟

هذا مطب آخر ، فقد وضع نفسه في موقف من يتلقى النصائح عن آداب الحديث . قال :

— أنا آسف .

— على ايه ؟

قال ان زوجته قد فكرت في المستقبل وتزوجته ، وأية حياة وأي مستقبل . ان الكسل هو الذي يمنع انفصالهما .

وفكر انه يلجأ للشكوى ويزيد وضعه حرجا . ضحكت وقالت :

— أنت رديت على نفسك .

هدأ قليلا . تناول كأس البراندي ، وأخذ يرتشفه ببطء وينظر الى وجهها... لدهشته كان هناك بسمة مرتبكة لم يستطع أن يفهم دلالتها .

(الشوارع الواسعة شبه المظلمة ،زوجته المنتظرة — لا بد أن تكون منتظرة ، جالسة على الفوتيل تضع ساقا فوق ساق وتقرأ في مجلة مصورة . لم يحاول أن يعرف أي مجلة ، ولذا فكان يتصورها دائما نفس المجلة . والمنتظرون على موقف الاتوبيس يرفعون ياقات جاكتاتهم ويخفون أعناقهم داخلها،النهر أسود تلمع فيه بعض الاضواء والمقاهي بنورها الكئيب وكراسيها المقلوبة فوق الطرابيزات) .

قالت : بتشرب كتير قوي . مش خايف تتعب ؟

قال انه عندما يكون متوترا فان الخمر لا تؤثر عليه .

— أنت متوتر دلوقتي ؟

ثم أضافت بعد قليل : كل واحد منا عنده مشاكل .

وفي عينيها ضحكة غريبة ، كمن اكتشف فيمن يجالسه خطأ معينا يمنعه الذوق من ذكره ، وربما ضحكة تواطؤ ، وللحظة رآها ضحكة من تمنح نفسها ... ثم ضاع ذلك في تعقيدات الموقف التي أصبحت تحيط به كأنها أسلاك شائكة .

(وخلال ذلك كانت غرفة مكتبه تبدو مسدلة الستائر ، وضعت قطع من القماش على مربعاتها الزجاجية ، دافئة ، حجرة مجتزأة من عالم شديد التعقيد ، ملحاح ، وادرك بضيق ان عليه أن يجتاز عقبات كثيرة حتى يصل اليها) .

يقول لها أن يديها جميلتان ويمسكهما بين يديه ، فتنحني بجسدها قليلا . وجهها ساكن ، مستسلم ، يستطيع هو أن يرى من ياقة الثوب الشق الفاصل بين ثدييها : مغر ، فيه دعاء . أنفها تنفرج طاقتاه قليلا وفي يدها التي يمسك بها عرق ينبض .

يقول فجأة : ريحة بوتاجاز .

بعد أن قالها ، فكر انها ربما تكون رائحة الغرفة المغلقة والبراندي .

(حجرة المكتب امتلأت بالدخان ورائحة الرطوبة . ينهض يفتح الزجاج ويستنشق الهواء النقي . يعود الى مكتبه ويكتب جملة أو اثنتين ، يحس بالبرد — بعدم الامان لان منفذا فتح للعالم وللخوف — فيقوم ويغلق الشباك) .

يتيقظ وجهها ، تدير راسها بحركة نصف دائرية محاولة أن تشم الرائحة . قالت :

— مش شامة ريحة بوتاجاز .

— يمكن أنا غلطان . (يأخذ نفسا عميقا) . فعلا ما فيش ريحه .

فكر أن يعود ليمسك بيديها ، ولكنه رأى أن ذلك غير ممكن الآن ، فعليه أن يبدأ من جديد .

قال : بترسمي عادة امتى ؟

وتصورها مستغرقة ، جادة ، نشطة وهي تمسك بالفرشة وتخلط الالوان وتتفحص قطعة القماش المشدودة .

قالت : في النهار ، النور بكون مناسب .

واسترخت على مسند المقعد وهي تنظر في اتجاه المطبخ . أحس بدوار سريع ، فقال وهو يلاحظ أن لسانه قد أصبح ثقيلا : سوف أقول لك بصراحة انني مرتبك ومضجر ، ولا اتصرف بحريتي لانني أخاف أن أفقدك . أخاف أن تغضبي فلا أراك مرة أخرى .

قالت : ما تخافش ، على كل حال كفاية شرب . أنت سكرت . انحنت وأمسكت بكأسه دون أن تبعده . قال :

— لا ، لا ، ما سكرتش .

وأمسك بالكأس ، وخلال ذلك لامس وجهها وجهه . أحس بوجهها ساخنا . ألقى برأسه في عناد على مسند الكرسي وقد قرر انه لن يدع الملامسات العابرة هي التي تحدد مسار كل شيء .

(زوجته الآن جالسة على الفوتيل في حجرة النوم تتثاءب وتقلم أظافرها ضجرة ، منذرة بالخطر ... زوجته تحمل اليه فنجان القهوة ، تضعه على المكتب وتنصرف مسرعة حتى لا تقطع حبل أفكاره) وخلال ذلك كان يشم رائحة البوتاجاز ، ويعلم انها وهم . خطر له موقف في رواية فرنسية قرأها منذ زمن بعيد : المحبان وقد بلغت بهما السعادة أقصاها يتفقان على الانتحار لانهما لن يستعيدا تلك اللحظة أبدا بعد ذلك . ولم يكن متأكدا ان كانا قد نفذا هذا الاتفاق أم لا وفكر أن موضوعا مشابها يصلح لقصة يكتبها عن امرأة تشعر بسعادة لم تعرفها قط قرب حبيبها ، وتعلم من تجاربها

السابقة انه من هذه القمة ستبدأ علاقتهما بالهبوط ، فتفتح أنبوبة البوتاجاز مستغلة سكره ، ويموتان معا . قال لنفسه يبدو انني سكرت. ثم تذكر أن مثل هذه الخواطر تطرأ له في الحياة العادية.

رآها تضحك : ايه ، البوتاجاز تاني ؟

ابتسم وهو يود أن تأخذ المسألة بجدية فاحتمال موتهما يجب ألا يترك لثقتها التي قد لا تكون في محلها . نهضت وفتحت زجاج الشباك وقالت :

ــ خلي الاودة تتهوى شويه .

ثم سارت نحو المطبخ وعادت بعد قليل وقالت :

ــ قفلت الانبوبة .

وكأنه يخوض نقاشا والخواطر تتوارد تلقائية لتؤكد وجهة نظره التي لم يعد ملتزما بها . قال لنفسه ، الغاز يتسلل من الانبوبة نفسها وليس من العداد ولان البوتاجاز أثقل من الهواء القادم من الشباك فسوف يبقى في الحجرة . ثم ملحوظة للقصة التي سوف يكتبها : في الصباح عند اكتشاف الجثتين وجدت المرأة ممسكة بمقبض الشباك وهي ميتة على هذا الوضع . وهو يعلم أن ذلك وهم عليه أن يتخلص منه .

أمسكت يده ونظرت اليه وعلى وجهها تعبير مرح :

ــ هيه ... ازاي الحال ؟

كان يستنشق الهواء بعمق وفكر ان ذلك سوف يزيل الدوار . قال أحسن ، وانه أحيانا يسيطر عليه وهم وهو يعلم انه لا أساس له ولكنه يمارس تأثيره كأنه حقيقة .

مالت نحوه بوجه حان وقبلته على وجنتيه ، قبلة خفيفة بشفاه ساخنة ، وقالت :

ـــ انت سكران ، أصلك شربت كتير .

في هذه اللحظة تأكد أن الدوار سببه هو انه استنشق كمية كبيرة من البوتاجاز، وأخذ يتكلم باسلوب السكارى في الافلام المصرية:
ـــ أبدا ، أبدا ، أنا صاح ... أنا الخمرة ما بتأثرشي عليا .

نظرت اليه نظرة ثاقبة ، حادة والضحكة ما تزال على شفتيها وقالت :

ـــ أنا جـــدع .

قال بغضب : انتي ليه مصره ان أنا سكران .

ثم أخذ فجأة يضحك بهستيرية ودموعه أخذت تنهمر . حاول أن يتوقف عن الضحك فلم يستطع . نظرت اليه بدهشة في أول الامر ثم أخذت تشاركه الضحك باتزان .

نهضت بعد قليل وقالت : ح اعملك فنجان قهوة .

فكر أن يناديها ويطلب اليها الا تفتح البوتاجاز ، ثم عدل عن ذلك وقال لنفسه : لقد أصبح ظلي ثقيلا .

وقف وراء الشيش المغلق وأخذ يستنشق أنفاسا عميقة وصورة وجهها الجاد ترتسم أمامه ، ومن خلاله تراءى له الندم القادم لانها لن تراه مرة أخرى وهو يدرك بشكل غائم أن المتعة والتجربة الحقيقية اصبحتا محرمتين عليه .

ثم ذلك الذي لن ينساه أبدا . نادية جالسة باحتشام عـــلى طرف الكنبة وجذعها مائل الى الامام دلالة استعدادها للنهوض ، ومعنى ذلك أن عليه أن ينصرف بعد الانتهاء من شرب القهوة .

وعند الباب وهي تودعه كانت عيناه تهربان من عينيها . طلبت أن ينتظر قليلا حتىترتدي ملابسها وتوصله بالتاكسي . أكد لها أن لا خطر عليه .

لم يتخذ لهجة السكارى ، وكانت واقفة بباب شقتها وهو ينزل السلم ، نزل دورين ونظر ، فرآها ما تزال واقفة ، وفكر أن بامكانه ان يعود اليها ويصلح ما حدث وأسرع في الهبوط الى الشارع .

كان يسرع وهواء الليل البارد قد أنعشه ... الصور كانت تتوالى في ذهنه دون مجهود . إن الرواية التي توقف عن كتابتها منذ أسابيع واعتقد انه لن يستطيع الاستمرار فيها تنبثق أحداثها المقبلة كشلال مندفع بقوة ... سوف يحطم كل الحواجز التي تحول بينه وبين الجلوس على مكتبه ومواصلة الكتابة فمن خلالها سوف يحقق كل شيء ، كلما عجز عن تحقيقه .

وفكر أن زوجته تنتظره الآن ، دائما تنتظره وفي عينيها تلك النظرات التي تجعله يشعر انه على خطأ .